

اهل الكدّيّة

أبطال المقامات في الأدب العربي

عبد النافع طليمات

دار ابن القيم

د. إسماعيل بن عبد الله
للترجمة والتأليف والنشر
سيف الدين بن العتيق على خبر ما انتجد الفكر لله نسيبي (الفناني)

- ★ تنشر المعرفة في سبيل الحياة والشعب .
- ★ تبعث التراث العربي وتربطه بالفكر المعاصر .
- ★ تعمل على توحيد الفكر العربي لمكافحة الاستعمار وما يخلف من امراض قاتلة .
- ★ تربط الفكر العربي بالتراث الانساني الاكبر .
- ★ تربط الفكر بالعمل .

اهل الكدبة
ابطال المقامات في بلاد العرب

عبد النافع طليمات

دار ابن الجراح

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مقدمة

أكثر النقاد ومؤرخو الأدب من الكلام في مقامات
الهمذاني والحريري وفي قيمتها الأدبية . وكثر الجدل حول اعتبار
هذه المقامات قصصاً أو عدم اعتبارها كذلك ، وحول السبب في
تأليف الهمذاني والحريري وغيرهما لها .

ونحن في هذا الكتاب لن نتعرض لدراسة المقامات من
جهة الأسلوب الأدبي أو التأليف الفني ، أو المكانة اللغوية ، بل
سنعتمد إلى وضع المقامات ، أو أول مظهر منها ، وهي مقامات بديع
الزمان الهمذاني ، في موضعها الزماني والمكاني وتبين العوامل
الاقتصادية والاجتماعية التي أوجدت نماذج من الناس أدت إلى
ظهور هذا النوع من الأدب .

أما الزمان فهو القرن الرابع الهجري ، وأما المكان فهو
العراق وما تلاه من جهة الشرق ، حيث عاش بديع الزمان الهمذاني ،
وحيث سنعتمد إلى التفتيش عن أساس أبطال هذه المقامات الاجتماعي ،
ذلك الأساس الذي أوحى إلى البديع بابتداع فن المقامات .

المحامي

حمص في ٢٠ / ٦ / ١٩٥٧ عبد النافع ظليمات

المقامة في النار بنح

احتلت المقامات مكانة مرموقة في الادب العربي منذ ظهورها حتى اليوم . وهناك شبه اجماع من النقاد ومؤرخي الأدب على أن أول من أوجد هذا الفن هو بديع الزمان الهمداني (ابو الفضل احمد بن الحسين ، ولد في همدان واستقر في خراسان ومات في مدينة هراة سنة ٣٩٨ هـ) ثم جاء الحريري (ابو محمد القاسم ابن علي الحريري الذي ولد لأسرة عربية سنة ٤٤٦ هـ بضاحية من ضواحي البصرة تسمى المشان وتوفي في البصرة أيضاً سنة ٥١٦ هـ) فأشار عليه من إشارته حكم ، وطاعته غم الى ان ينشئ مقامات يتلو فيها تلو البديع (١) . ويروون في التعليق على هذه العبارة ان المقصود بها هو الخليفة المستظهر كما يروون أنه الخليفة المسترشد او احد وزرائه (٢) . وان مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري هي التي سارت وزاعت شهرتها بين الناس رغم محاولة كثير من الكتاب تقليدها وعدم بلوغهم الغاية في ذلك .

فقد حاول تقليد بديع الزمان الهمداني ابو نصر عبد العزيز ابن عمر بن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، وابو القاسم عبد الله ابن محمد بن نايقا المتوفى سنة ٤٨٥ هـ . وطبعت لابن نايقا تسع

(١) - مقامات الحريري ، المقدمة ، ص : ٥

(٢) - شوقي ضيف : فنون الادب العربي ، المقامه ، ص : ٥٥

مقامات ، وهو يتخذ بطلها شخصاً يسميه اليشكري ، اما الرواة
فمتعددون . وهي تدور في اكثرها على الكدية ، ولكن ليس فيها
جمال اللفظ الذي نجده عند البديع او عند الحريري ، واعلمنا من
أجل ذلك لم تشتهر في الناس . وكان اول من حاول تقليد الحريري
في اصرار هو ابو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي المتوفى سنة
٥٣٨ هـ ، فقد اطلع على مقاماته وأنشأ خمسين مقامة معارضة لها
أتعب فيها خاطره ، وكدد ذهنه ، وأسهر ناظره ، وصعب على نفسه
المسالك فيها ، فالتزم في نثرها ونظمها ما لا يلزم من تعدد القوافي
واشتراط ان تكون من حرفين فأكثر ، واتخذ راويته فيها المنذر
ابن حمام وجعل بطلها السائب بن تمام . وسقطت هذه المقامات
من يد الزمن فلم تصل إلينا . . . ونتقدم في القرن السادس فنجد
الحسن بن صافي المصري الملقب بملك النحاة يصنف مقامات على
نسق المقامات الحريرية ، ويصنع صنيعه ابو العباس يحيى بن سعيد بن
ماري النصراني الطبيب . واشتهرت مقاماته باسم المقامات المسيحية .
وفي نهاية القرن نجد ابن الجوزي يؤلف خمسين مقامة في
موضوعات أدبية مختلفة ويسمى بها نحو الوعظ . . . وكان يعاصره ابو
العلاء احمد بن أبي بكر بن احمد الرازي الحنفي الذي ألف ثلاثين
مقامة طبعت في استانبول مع مقامات ابن نايقا في مجلد واحد ،
وزاه يقول في مقدمتها انه ألفها لقاضي القضاة أبي حامد محمد بن
القاسم الشرزوري وانه سيحتذي فيها على مثال بديع الزمان

والحريري وسمى راويتها الفارس بن بسام المصري وبطلها أبا عمرو
التنوخى . وراه يقلد الحريري في بعض ألقابه الأدبية .. وقد يجعل
المقامة في وصف حمام أو محبرة أو قلم أو فرس أو معركة . وهو في
ذلك كله يثقل على النفس والأذن بما يستخدم أحيانا من كلمات نائية
أو موعلة في الغرابة . ونمضي في القرون التالية للقرن السادس
فتكثر المقامات ، ويكثر المقلدون ويتسع الموضوع الذي تخوض فيه ،
فقد يكون الحديث والفقه والنحو ، كما في مقامات ابن الصيقل
الجزري المتوفى سنة ٧٠١ هـ وعدتها خمسون ، نسب روايتها الى
القاسم بن جريال الدمشقي وحوادثها الى أبي نصر المصري . وقد
يكون الموضوع وصف الحيوانات مثل مقامات ابن حبيب الحلبي
المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، وقد يكون وصف البلدان مثل مقامات ابن
الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . وربما كانت مقامات السيوطي المتوفى
سنة ٩١١ هـ أشهر المقامات التي صنف في العصور الوسطى المتأخرة ،
وهي أشبه ماتكون بالرسائل ، فليس فيها بطل ولا راو ، إنما هي
رسائل مسجوعة قد تتحدث في موضوع خيالي مثل أنواع الطيب
وفوائد كل نوع ومفاخره ، وأنواع الرياحين والزهور ودفاع كل نوع
عن نفسه ، وقد تتحدث في موضوع جدلي مما يتناقش فيه الفقهاء
مثل أبوي الرسول وحكماها في البعث والجزاء ، ومثل ضوفية ابن
الفارض وما اتهمه به خصومه . وقد تتحدث في موضوع اجتماعي
كالرخاء والغلاء . فهي بهذه الصورة أبحاث مسجوعة وقد ملأها

السيوطي بالحديث النبوي وبالمعلومات من جميع الفنون طبية وغير
طبية . وما تزال اللغة العربية تستقبل هذه الألوان المختلفة من
المقامات حتى يخرج العصر الحديث ، فيحاول غير واحد تقليد
الحريري ، ومن أشهر من قلده في القرن الماضي الشيخ حسن
القطار في مصر والآلوسي في العراق وفارس الشدياق وناصر
اليازجي في الشام . . . وقد نال اليازجي قصب السبق ، لا بين
معاصريه حسب ، بل بين كل من جاءوا بعد الحريري ، اذ عرف كيف
يقالده وكيف يحكم هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً ، فقد كتب
ستين مقامة واتخذ راوية هو سهيل بن عباد وبطلا هو ميمون بن
خزام ، وهو اديب شحاذ من نوع ابي زيد السروجي وأبي الفتح
الاسكندري بطلي مقامات الحريري والهمداني . . . ولا نباغ اذا
قلنا إن مقامة اليازجي تقليد دقيق لمقامة الحريري فهي تطابقها من
جميع الوجوه . . . وكأن اليازجي تخلى عن كل شيء فيه ليصنع
المقامة بالذوق الحريري وعلى السنن التي وضعها لها . حتى عصره
لا نجد له اي صدى في مقامته ، وكذلك البلدان التي اقترحها لها
اسماء لا نجد لها أي اثر في عمله ، فليكن اسم المقامة الشامية او
المصرية او اللبنانية ، فهذا الاسم لا يعني عنده شيئاً ، إنما هو بصدد
صورة أدبية عامة يعرضها ، وتصادف ان الحريري وبديع الزمان
من قبله سميّا مقامتيهما باسم البلدان ، فاستن سنتهما واتبع

ونحن نرى من هذا العرض التاريخي البسيط ان المقامات المتأخرة قد تغيرت عن المقامات الاولى ، مقامات الهمداني والحريري ومن اتى بينهما ، ولا ينطبق عليها اسم « المقامات » بالنسبة الى تلك الا تجوزاً ، اللهم الا مقامات اليازجي التي كانت تقليداً تاماً لمقامات الحريري وليست ابنة عصرها في وجه من الوجوه . وقد رأينا كيف انصرفت المقامات المتأخرة الى معالجة المواضيع المختلفة من فقه وتصوف وطب ونحو ووصف الأشياء والحيوانات والبلدان . أما مقامات الهمداني والحريري فانها ليست اكثر من سرد لفترات من حياة واحد من المكدين او المتسولين يطوف من مكان الى مكان يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ويحتال عليهم ، ويتقابل دائماً هذا الشخص المسمى بأبي الفتح الاسكندري في مقامات الهمداني وبأبي زيد السروجي في مقامات الحريري ، مع راوٍ له يحكي أخباره وهو عيسى بن هشام في المقامات الاولى والشارث بن همام في الثانية ، كل ذلك بأسلوب فيه حرص على اظهار مقدرة المؤلف اللغوية والبيانية والبديعية وفيه عرض لآراء الكتّاب الأدبييه والاجتماعية وغيرها في بعض الاحيان . وان الحرص على اظهار المهاره اللغوية والبيانية والبديعية في مقامات الحريري أقوى منه في مقامات الهمداني ، وهذه تفيض بالحوادث وتنفض بالحياة اكثر من تلك .

هل المقامة قصة ؟

يجيب مارون عبود على هذا السؤال بقوله : نعم ياسيدي، انها قصة ؛ والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هند امك انت وهند ام جدك رحمه الله (١). ويقول الدكتور شوقي ضيف: ليست المقامة قصة وانما هي حديث ادبي بليغ ، وهي أدنى الى الحيلة منها الى القصة ، فليس فيها من القصة الا ظاهر فقط ، أما هي في حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب انيقة ممتازة . . فلم يتجهوا بالمقامة الى وصف حوادث النفس وحرركاتها ، ولا الى الافساح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحملها ، وانما اتجهوا بها الى ناحية لفظية صرفة (٢).

ويقول ايضاً : قد يكون من المغالاة ان نسميها قصصاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لأنها تفقد العقده والحبكة القصصية ، وقد يمكن ان تعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن اطوار مستقلة من حياة بطلها . . او قل انها تعبر عن حوادث مستقلة من أيامه . والحق انها ليست اكثر من حيل تفسر حياة متكدي . . يمتثل على الناس بطرق مختلفة من بلاغته ليبرز اموالهم ، وما من ريب في ان هذه الصورة تخرج بالمقامات عن أسلوب القصص . . اذ لا نجد فيها طرافة القصص ولا

(١) - مارون عبود : بديع الزمان الهمداني ، ص : ٣٧

(٢) - شوقي ضيف : المقامة ، ص : ٩ - ١٠

طرافة الحوار التمثيلي (١) . وإن من يقرأ مقامات الهمذاني أو
الحريري يجد أن الدكتور شوقي ضيف لم يجانب الصواب فيما قال ،
فإن المقامة ليست قصة ، وليست نوعاً من الأحاديث أو الأخبار التي
تعجبها كتب الأدب والأخبار ، وإنما هي نوع من الأدب قائم بذاته
هو : « المقامة » .

(١) - شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص : ١١٨ ،
طبعة أولى .

المقامة من ابتكار الهمذاني

اما كيف ابتكر بديع الزمان فن المقامة فقد كثرت الاقوال في ذلك منذ القديم فنرى أبا اسحاق الحصري ، حين عرض لذكر بديع الزمان ، يقول :

« ولما رأى — أي الهمذاني — أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي أغرب بأربعين حديثاً وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأبداها للابصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، في معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حججها الأسماع ، وتوسع فيها ، اذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة (١) في الكدية تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً . . وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين سمي أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر ابا الفتح الاسكندري ، وجعلها يتهاديان الدر ويتنافثان السحر ، في معانٍ تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة . . » (٢)

وقد اخذ الدكتور زكي مبارك بخناق هذا النص كمن عثر

(١) - الموجد منها والمطبوع اثنان وخمسون

(٢) - الحصري : زهر الآداب ، ج : ١ ، ص : ٣٠٧

تلى كنز ثمين وراح يؤكّد ان بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات
وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ فقال :

كان المعروف ان بديع الزمان الهمداني اول من أنشأ فن
المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق
بديع الزمان الى هذا الفن . . وفي رأيي ان الحريري هو الذي
اذاع هذا الغلط ثم آمن الناس بقوله اذ كان اشهر من اقبل الجمهور
عليهم من كتاب المقامات ، وهو في مقدمة مقاماته ينسب الى بديع
الزمان فضل السبق اذ يقول : « وبعد فانه قد جرى ببعض انديّة
الادب الذي ركدت في هذا العصر ريحـه ، وخبت مصايحه ،
ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان ، رحمه الله
تعالى ، وعزا الى ابي الفتح الاسكندري نشأتها ، والى عيسى بن
هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . فأشار
من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، الى ان أنشيء مقامات اتلو فيها تلو
البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . . . هذا مع اعترافي بأن
البديع ، رحمه الله ، سباق غايات ، وصاحب آيات ، وان المتصدي
بعده لانشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف الا فضالته ،
ولا يسري ذلك المسرى الا بدلالته . » وقد وصلت الى ان بديع الزمان ليس
مبتكر فن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد . . وعندي ان من
اسباب غفلة مؤرخي الآداب عن كشف هذا الخطأ ان ابن دريد
سمى قصصه « أحاديث » في حين ان بديع الزمان سمي قصصه

« مقامات » (١) .

ولو رجعنا الى احاديث ابن دريد التي أوردتها القالي في اماليه وجدناها تختلف عن المقامات اختلافاً بيناً في الشكل والموضوع، فان ابن دريد يقص فيها بأسلوب مسجوع قصصاً وحوادث مختلفة تتعلق بمواضيع شتى مثل تصوير الشائل العربية وطريقة النساء في فهم الرجال واعجاب البنات بأعمال الآباء وما يقع من الملاحاة بين الازواج والتواصي بين الشباب والكهول وتصوير شجعان العرب وفرسانهم واجوادهم الخ . . وهذا كله يضعف مزاعم الدكتور مبارك . واننا لنجده ، بعد ما أوردناه من كلامه ، يعود فيقول :

ومع ان ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فان عمل بديع الزمان في هذا الفن اقوى واظهر ، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في اذهانهم غير فن بديع الزمان ، فهو بذلك منشىء هذا الفن في اللغة العربية . (٢)

ثم يقول :

ونحن من وجهة التاريخ نرى ان ابداع فن المقامات يعد

(١) - الدكتور زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ، ج : ١ ،

ص : ١٩٨ - ١٩٩

(٢) - المرجع السابق ، ص : ٢٠١

فتح عظيمًا في اللغة العربية ، ولا بد ان يكون معاصرو بديع
الزمان تلفتوا الى فنه تلفت الدهشة والاستغراب وعدوه من كبار
المبدعين . (١)

ويوافق الدكتور زكي مبارك في هذا الرأي الدكتور
شوقي ضيف في كتابه : « المقامة » حيث قال :

إن احاديث ابن دريد هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته —
ويورد كلام الحصري ثم يقول : — ولا تدور هذه الاحاديث على
الكدية ، كما هو الشأن عند بديع الزمان ، ومع ذلك فالصلة بين
العملين واضحة . وذلك ان احاديث ابن دريد تصاغ في شكل رواية
وسند يتقدمها ، ثم هي غالباً مسجوعة ، وتمتلىء باللفظ الغريب . فهي
احاديث ألقت لغرض تعليم الناشئة اللغة ، بالضبط كما حاول بديع
الزمان في أحاديثه ، وان كانت خفيفة رشيقة ... وليس ذلك
حسب ، فقد تكون الفكرة التي ادار حولها مقاماته ، ونقص
الكدية او الشحاذة ، استمدتها مباشرة من « خطبة الاعرابي
السائل في المسجد الحرام » التي رواها صاحب الامالي عن ابن
دريد . . . وانه عارضه بها معارضة . على أنه ليس وحده الذي ألهم
البديع مقامته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ
تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدية حديثاً طويلاً وقص نواذرهم .
وقد احتفظ البيهقي في كتابه « المحاسن والمساوي » ، بفصل طريف

(١) - المرجع السابق ، ص : ٢٠٤

من هذا العمل . ونحن لا نطلع على هذا الفصل حتى نقطع بأن
البديع اطلع على هذا العمل للجاحظ ، وانه هو الذي اوحى اليه
ان يدير أغلب مقاماته على الكدية ... ومعنى ذلك اننا نظن ظناً ان
البديع قد استوحى في عمله ما كتبه الجاحظ وقصه عن أهل
الكدية ، كما استوحى في عمله ايضاً ما كتبه ابن دريد من احاديثه
المعروفة في كتاب « الأمالي » . فهو قد اطلع على العاملين . ومن
غير شك يعلو في التأثير فيه العمل الاول على العمل الثاني ، فان
دريد وجهه ليكتب احاديث تعليمية ، أي اثر فيه من جهة الشكل ،
اما الجاحظ فآثر فيه من جهة الموضوع ، اذ جعله يدير احاديثه
او مقاماته على الكدية . (١)

إن ما سقناه للرد على الدكتور زكي مبارك يصح للرد على
شوقي ضيف أيضاً من جهة الاخذ بأقوال الحصري عن تقليد
الهمداني لابن دريد ، اما عن تأثر الهمداني موضوعاً بالجاحظ
فاننا نقول: نعم ، ان الجاحظ كتب عن أهل الكدية وحياتهم ونواذرهم
ما ذكره الدكتور شوقي ضيف ، ونضيف اليه ان الجاحظ اورد في كتابه
« البخلاء » فصلاً عن التكدية والمكدين وحياتهم وطرق تحصيلهم
المال واسباب العيش وهو بعنوان : « حديث خالد بن يزيد » (٢).

(١) - الدكتور شوقي ضيف : المقامة ، ص : ١٧ - ٢٠

(٢) - راجع البخلاء للجاحظ ، نشرة دار الكاتب المصري ، ص :

ولكن ذلك كله لا يشا كل المقامة ولا يوجب ان
الهمداني اخذ مواضع مقاماته مما كتبه الجاحظ عن أهل الكدية .
وان الصواب في هذا الأمر هو ان الجاحظ وغيره كتبوا عن
جماعة أهل الكدية هؤلاء باعتبارهم فئة متميزة من الناس اخذت
تظهر في المجتمع الاسلامي منذ ايام الجاحظ ثم كثرت كثرة بالغة في
ايام الهمداني فكانت هي واعمالها ومفارقاتها وحيلها ونواذرهما
باعثاً له على تأليف مقاماته وجعل ذلك كله موضوعاً لها . وقد قال
الدكتور شوقي ضيف ، بعد كلامه الذي اوردناه ، ما يلي :

ولا بد ان نضيف الى عمل الجاحظ عملاً آخر لا يقل أهمية
عن عمله ، بل قد يتقدمه ، وهو بروز هذه الطائفة من اصحاب
الكدية في عصر البديع ، وكانوا حينئذ يعرفون بالساسانيين . (١)
وهو يقول في موضع آخر :

على انه ينبغي ان نتلقى كلام الحصري بشيء من الشك . .
وزيدنا شكاً واتهاماً ان مارواه صاحب الامالي عن ابن دريد في
كتابه يدل — من بعض الوجوه — على ان احاديثه كانت تخالف
مقامات الهمداني في موضوعها ، اذ ان مارواه له يدور حول حكايات
عربية قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب ، بينما أقاصيص بديع
الزمان تدور على التسول والكدية ، وقد نسجت كلها حول شخصية
واحدة هي شخصية ابي الفتح الاسكندري . ومن يدري؟ ربما ساق

(١) الدكتور شوقي ضيف : المقامة ، ص : ٢٠

الحصري ماساق عن ابن دريد ليدل على مبلغ تفوق الهمداني على
شيخ من شيوخ اللغة المعروفين ، وخاصة انه كان يتعصب لبديع
الزمان ، فهو يوازن بين صنعيهما ليشهد للبديع بتفوقه ، وقد ذهب
يقول : ان عمل البديع يذوب ظرفاً ويقطر حسناً ، بينما عمل ابن
دريد يذوب عنجهية ويقطر ألفاظاً وحشية ، وهذا هو كل ما اراده
الحصري من مقابلته بين العاملين ، اما ان مقامات البديع سبقت
بمقامات لابن دريد فشيء لم يكن يدور بخلده ، إنما هو يوازن
بين مطلق قصص ، وهي موازنة يريد ان ينفذ منها الى تفضيل بديع
الزمان ، وهذا هو كل ما يمكن ان يفهم من نصه ، ومن اجل ذلك
كنا نميل الى الوقوف مع الحريري اذ يقول في مقدمة مقاماته : قد
جرى ببعض اندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحـه ،
وخبث مصايحه ، ذكر المقامات التي ابتدئها بديع الزمان ، وعلامة
همذان ، فأشار من إشارته حـكم ، وطاعته غم ، الى ان أنشيء
مقامات اتلو فيها تلو البديع . فالحريري يرى ان المقامات من ابتكارات
بديع الزمان ، وحق ما راه ، فانه لا يعرف ان احداً سمي قصصه
باسم المقامات قبله ، وعلى كل حال من المبالغة ان يربط باحث بين
مقامات البديع وبين احاديث ابن دريد لمجرد نص الحصري ، وقد
يكون اولى من ذلك ان نربط بينها وبين اخبار اهل الكدية في
عصره ، وقد كانوا يسمون باسم الساسانيين . . ومن يقرأ في
اليتيمة يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزاً في الحياة الادبية

للقرون الرابع الهجري . (١)

وبناء على ماتقدم نجد انه لا مناص لنا من اهمال نص
الحصري او من الاخذ به على الوجه الذي اخذ به الدكتور
شوقي ضيف هنا والعودة الى ما قلناه اولاً من ان المقامات ليست
اكثر من سرد لفترات من حياة واحد من المكدين يطوف من
مكان الى مكان يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ويحتال عليهم وذلك
بأسلوب فيه حرص على اظهار مقدرة المؤلف اللغوية والبيانـية
والبديعية . ونحن سنأتي فيما يلي بعرض تاريخي يوضح لنا كيف
ظهر ابطال المقامات في المجتمع الاسلامي ، وهم اهل الكدية الذين
كثروا في القرن الرابع الهجري واحتلوا مكاناً ملحوظاً في الحياة
الاجتماعية والادبية مما أوحى الى بديع الزمان الهمداني بجعل حياة
هذه الطائفة موضوعاً لأدبه وبابتداع فن المقامات .

(١) - الدكتور شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص :

١١٦ - ١١٧ .

تطور المجتمع الاسلامي حتى القرن الرابع الهجري

تمر الشعوب خلال تطورها بمهود وادوار تطور متشابهة هي عهد المشاعية البدائية، وآخر مراحل عهد نظام الامومة، والعهد الابوي (البطريركي)، وعهد الرق، وعهد الاقطاع والعهد البورجوازي، وعهد الاشتراكية. . الخ. وليس هناك حد ناجز يفصل بين عهد وعهد؛ فاننا نجد في الحاضر بقايا الماضي وبذور المستقبل. ويؤكد التاريخ ان ليس الزامياً ابداً على كل شعب ان يمر في جميع مراحل التطور الاجتماعي، فقد وجد كثير من الشعوب في شروط تمكنها اجتناب هذا العهد او ذاك من عهود التطور والانتقال دفعة واحدة الى مرحلة عليا، (١) كأن يستولي شعب متأخر في التطور على شعب آخر في مرحلة اعلى او يندمج فيه فيتجنب المرور في المراحل او العهود الفاصلة بين درجتي تطورها، او انه يمر بتلك العهود مرأً سريعاً ويأخذ بها في آخر اشكالها فتبدو عنده مختلفة عن اصلها المعروف نوعاً ومختلطة ببعض مظاهر العهد التالي. فالبلاد العربية اليوم مثلاً، وبصورة خاصة مصر وسوريا، تتجه نحو النظام الرأسمالي، الا انها تأخذ بهذا النظام في آخر أشكاله التي وصل اليها ومشوباً بكثير من المبادئ الاشتراكية.

١ - موجز الاقتصاد السياسي لا كاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، ترجمة جريدة الاخبار، القسم السابع.

كان العرب عند ظهور الاسلام في مرحلة الانتقال من النظام القبلي الابوي الى عهد الرق . ولم يكن العرب كلهم في ذلك الحين على درجة واحدة من التطور ، فكان هناك منهم من لا يزال متأخراً في تطوره ومغرقاً في البداوة ، كما في شرقي شبه الجزيرة العربية ، وجنوبها ، ومنهم من كان قد قطع شوطاً بعيداً في الحياة المدنية المستقرة من زراعة وتجارة وصناعة حرفية تقوم على الرقيق كما في الحجاز واليمن ومدن السواحل والاطراف في الشام والعراق ، حيث أنشئت ممالك او حكومات مدن (كومون) . وقد تمسك الاخرون بالاسلام المنظم للحياة المدنية اكثر من القبليين الذين لم يتأخر قسم كبير منهم عن الارتداد منذ ان علموا بوفاء النبي ، خصوصاً وان الاسلام قد قضى على العادات القبلية وأهمها الغزو الذي هو من الموارد المعاشية الاساسية في أدوار البداوة . فقضى المسلمون من أهل الحجاز على ردتهم هذه . وإن حروب الفتوح قد أرضت ميول هؤلاء البدو الحربية وشغلتهم عن مناوأة الدولة الى حين ، حيث عادت هذه المناوأة الى الظهور في الانتفاضة على عثمان وفي الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية وفي حركات الخوارج بعد ذلك .

وكان نظام الرق الذي اقره الاسلام ونظم احكامه يختلف عن نظام الرق لدى الأمم القديمة الاخرى ويتميز ، هو والحياة الاجتماعية في عهود الاسلام الاولى ، بالميزات الآتية :

١ — بقاء بعض مظاهر الحياة القبلية القديمة ، وخصوصاً في العهد الاموي ، وظهور النزاع بين القديم والجديد ، كما في النزاع بين العدنانية والقحطانية ، وبين الخوارج والدولة الاموية .
٢ — لم تكن الفتوحات تؤدي الى استرقاق المملوكين بصورة عامة ، كما كان عليه الحال لدى اليونان والرومان مثلاً ، بل كان يتبع في معاملة العدو الاحكام الآتية :

يقول القاضي ابو يوسف : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان اذا اجتمع اليه جيش من أهل الايمان بعث عليهم رجلاً من أهل الفقه والعلم ، فاجتمع اليه جيش ، فبعث عليهم سلامة بن قيس فقال : « سر باسم الله ، تقاتل في سبيل الله من ، كفر بالله ، فاذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوه الى ثلاث خصال : ادعوه الى الاسلام ، فان أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة وأيس لهم في فيء المسلمين نصيب ، وإن اختاروا ان يكونوا معكم فليهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم ، فان أبوا فادعوه الى اعطاء الجزية ، فان أقروا بالجزية فقاتلوا عدوهم من وراءهم وفرغوه من خراجهم ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فان أبوا فقاتلوه فان الله ناصركم عليهم ، وإن تحصنوا منكم في الحصن ... وقاتلوكم فلا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » . قال سلامة : فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين فدعوناهم الى ما أمر به أمير المؤمنين فأبوا ان يسلموا فدعوناهم الى اعطاء الجزية فأبوا ان

يقروا بها ، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم ، فقتلنا المقاتلة وسبينا
الذرية . (١)

ويروي البلاذري على لسان شويس العدوي أنه قال : أتينا
الاهواز وبها ناس من الزط (٢) والاساورة (٣) فقاتلناهم قتالاً
شديداً فظهرنا عليهم وظفرنا بهم فأصبنا سبياً كثيراً اقتسمناهم ؛
فكتب إلينا عمر أنه لا طاقة لكم بعمارة الأرض فخلوا ما في أيديكم من السبي
واجعلوا عليهم الخراج ؛ فرددنا السبي ولم نملكهم (٤) .

٣ — ظهور نظام الولاء وخاصة ولاء الموالاتة بشكل واسع
في المجتمع الاسلامي على الوجه الذي سنفصله فيما بعد .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن بعض البلاد المفتوحة ، وبصورة
خاصة بلاد فارس ، كانت قد اجتازت عهد الرق ووصلت الى مرحلة
تفككه وظهور بوادر النظام الاقطاعي ، فنحن نرى في كتب
التاريخ والفتوح ان البلدان والمقاطعات الفارسية كان يحكمها المرازبة
والدهاقين (٥) الذين كانوا يتمتعون ببعض الاستقلال الذاتي في

١ — ابو يوسف : الخراج ، ص : ١٩٣ - ١٩٤

٢ — معرب « جت » . كانوا في جند الفرس ممن سبوه وفرضوا
له من اهل السند وسنتكم شيئاً عنهم فيما بعد .

٣ — الحرس الفارسي او الرماة بالسهم .

٤ — فتوح البلدان ، ص : ٣٧٠

٥ — جاء في القاموس المحيط ان الدهقان هو : زعيم فلاحي العجم

ورئيس الاقليم ، وان المرازبة هم : رؤساء الفرس .

حكمهم لمقاطعاتهم ، بدليل انه بعد القضاء على سلطة ملك فارس
يزدجرد بن شهريار ظل هؤلاء المرازبة والدهاقين في أطراف
البلاد يحكمون مقاطعاتهم ، فكان الجيش الاسلامي يحارب كل واحد
من هؤلاء فاما ان يقضي على سلطته وحكمه عنوة ، وإما ان يعقد
معه صلحاً على جزية سنوية أو يسلم ويظل في مركزه تابعاً للدولة
الاسلامية . وقد كان هؤلاء المرازبة والدهاقين من العاملين بجد
على تقويض السلطة الاموية حيث ساعدوا العباسيين مساعدة فعالة
وتمتعوا تحت ظلهم بنوع من الاستقلال الذاتي أخذ ينمو على مر الايام .
ومن هنا جاء ما نلاحظه في الدولة الاسلامية ، في اول
عهدا ، من اختلاط بين نظام الرق ونظام الاقطاع حيث كانت
السلطة مركزية بصورة عامة ، مما يلائم نظام الرق ، ولكن كان
يخالطها بين الفلاحين والمقطعين او بين الفلاحين وبعض الولاة
والامراء والقواد والدهاقين والمرازبة علاقات اقطاعية محلية ، كما ان
الدولة حلت ، عن طريق نظام الخراج ، محل ملك فارس وقواده
والدهاقين الزائلين او الجائين في ملكية الارض وفي تناول حصتهم
من المحصول .

يروى البلاذري أنه ، إثر وقعة جلولاء سنة ست عشرة
هجرية ، أسلم جميل بن بصبهرى ، دهقان الفلاليج والنهرين ،
وبسطام بن رسي ، دهقان بابل وخطرنية ، والرفيد ، دهقان العال ،
وفيروز ، دهقان نهر الملك وكوثي ، وغيرهم من الدهاقين فلم

يعرض لهم عمر بن الخطاب ولم يخرج الارض من أيديهم وأزال
الجزية عن رقابهم (١) .

ويروي أيضاً : أن العرب لما نزلت أذربيجان نزلت اليها
عشائرها من المصريين (يعني الكوفة والبصرة) والشام وغلب كل
قوم على ما أمكنهم وابتاع بعضهم من العجم الارضين وألجئت (٢)
اليهم القرى للخفارة فصار أهلها مزارعين لهم (٣) .

ويحدثنا كذلك : أن القاسم بن أمير المؤمنين الرشيد ولي
جرجان وطبرستان وقزوین فألجأ اليه أهل زنجان ضياعهم تعزراً
ودفعاً لمكروه الصعاليك وظلم العمال عنهم ، وكتبوا له عليها الاشريعة (٤)
وصاروا مزارعين له . . وكان القاقران عشرياً لان أهله أسلموا عليه
وأحيوه بعد الاسلام فألجأوه الى القاسم أيضاً على أن جعلوا
له عشرأ ثانياً سوى عشر بيت المال (٥) . وكان أهل الشعبية من
الفرات جعلوها لعلي بن أمير المؤمنين الرشيد في خلافة الرشيد على
أن يكونوا مزارعين له فيها ويخفف مقاسمتهم ، فتكلم فيها فجعلت

١ - فتوح البلدان ، ص : ٢٦٥

٢ - الاجلاء : هو ان يكتب الفلاحون أملاكهم صورياً للامراء
والاعيان حتى يخف عنهم الخراج بمقدار النصف او الربع ؛ و كثيراً ما ضاعت
املاكهم من هذا الطريق فادعى الاغنياء ملكيتها او ادعاهم ورثتهم من
بعدهم (احمد امين : ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ١٤)

٣ - فتوح البلدان ، ص : ٣٢٤ - ٣٢٥

٤ - أي عقود الشراء

٥ - فتوح البلدان ، ص : ٣١٩

عشرية من الصدقة (١) وقاسم أهلها على ما رضوا به (٢) .
وأصفى (٣) عمر بن الخطاب من السواد أرض من قتل في
الحرب وأرض من هرب وكل أرض كسرى وكل أرض لأهل بيته
وكل مغيض ماء وكل دير يزيد وكل صافية اصطفاها كسرى (٤) .
ولم يمنع هذا كله نظام الرق من البروز في المجتمع الاسلامي
وسيطرته على طريقة الانتاج وعلاقاته فيه ، ولكنه كان ، للأسباب
التي أوضحناها ، نظاماً قصير الامد لم يلبث أن أخذ في التحلل منذ
القرن الثالث الهجري على الوجه الذي سنبينه فيما بعد .
وهكذا كان المجتمع الاسلامي ، في القرنين الاول والثاني

١ - أي حولها من أرض خراجية إلى أرض عشرية حيث نقص نصيب
بيت المال من محاصيلها . أما حد أرض العشر من حد أرض خراج فكل أرض أسلم
عليها أهلها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر .
وكذلك من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ومن عبدة
الوثان من العرب فأرضهم أرض عشر ، وإن ظهر عليها الإمام ... وأما دار
من دور الاعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهي أرض خراج
« حيث يؤخذ من الفلاح الذي تترك في يده حصة معينة من المحصول » ، وإن
قسمها بين الذين غنموها فهي أرض عشر ... وكل أرض من أراضي الاعاجم
صالح أهلها عليها وصاروا ذمة فهي أرض خراج . « أبو يوسف : الخراج ، ص :
٦٩ » .

٢ - فتوح البلدان ، ص : ٣٦٤

٣ - أي جعلها لبيت المال .

٤ - المرجع السابق ، ص ٢٧٢

يتألف ، بصورة عامة ، من العرب الفاتحين ومن الارقاء والموالي وأهل الذمة . وقد اجتفظ العرب الفاتحون لانفسهم بالوظائف الادارية العليا وبالجنديّة ؛ وكانت تقضي القواعد التي سنّها عمر بن الخطاب بأن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد في كل لحظة . . وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاءً معيناً مقابل خدماته . وكان المسلمون يوزعون جنودهم فيما كانوا يفتحونه من الولايات . . وكانت حياة العرب تتفق مع تلك النزعة الحربية ؛ فقد كان ممنوعاً عليهم ملكية الارض (١) بصورة عامة ، وقد رد عمر بن الخطاب على من رأى توزيع الاراضي المفتوحة على المحاربين بقوله :

« لكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلو جههم (٢) فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه أو أنا في توجيهه ، وقد رأيت ان أحبس الارضين بعلوجها واضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . رأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، رأيتم هذه المدن العظام — الشام والجزيرة والكوفة

١ - فان فلوتن : السيادة العربية ؛ ص : ١٦ - ١٩ .

٢ - العلوج : الفلاحون .

والبصرة ومصر — لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدراار العطاء
عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج ؟ (١).
فكان العرب والحالة هذه يعيشون من العطاء والمعاون
والغنائم ويحتفظون بالمراكز العليا في الدولة والمجتمع ؛
وتركت الزراعة والصناعات للارقاء والموالي وأهل الذمة . ومن
هنا جاء ما نشاهده لدى العرب سادة البلاد المفتوحة آنذاك من
استحقار لتلك المهن وأصحابها كما في قصيدة أبي بجير في تأنيب آل
عبد القيس لتزويجهم الموالى ... قال أبو بجير :

أمن قلة صرتم الى أن قبلتم

دعارة زراع وآخر تاجر

وأصهب رومي وأسود فاحم

وأبيض جعد من سرة الاحامر (٢)

وقد قال ابن خلدون : أما العرب الذين أدر كوا هذه
الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة
وحاميتها وأولي سياستها ... والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع
والمهن وما يجبر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين (٣).
كانت أسرة الرجل العربي تتألف من زوجته وأولاده

١ - كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ، ص : ٢٥

٢ - محمد الطيب النجار : الموالى في العصر الاموي ، ص : ٤١

٣ - ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٥٤٤

وأرقائه ومما يتبع هؤلاء من الموالى بنوعيه : موالى العتاقة وموالى الموالاة . ومولى العتاقة هو رقيق أعتقه سيده فيصير المعتق منسوباً إلى المعتق بالولاء . ويسمى هذا ولاء العتاقة وولاء النعمة . ومولى الموالاة هو رجل ينتمي لآخر بالمخالطة أو بالمخالفة فينسب إليه ، أو ينتمي إلى قبيلة من القبائل فينسب إليها (١) . وقد يتم عقد المخالفة هذا بين جماعتين ، بين فئة من الناس وقبيلة .

روى البلاذري فقال : كان سياه الاسواري على مقدمة زردجرد ثم إنه بعث به إلى الاهواز ، فنزل الكلبانية وأبو موسى الأشعري محاصر السوس ، فلما رأى ظهور الاسلام وعز أهله وأن السوس قد فتحت والامداد متتابعة إلى أبي موسى أرسل إليه : انا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم ، وعلى أنه إن وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض ، وعلى أنه إن قاتلنا العرب منعمونا منهم وأعنتمونا عليهم ، وعلى أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم ، وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الأمير الذي بعثكم . . فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر أن اعطيهم جميع ما سألوا . . فلما صاروا إلى البصرة سألوا أي الأحياء أقرب نسباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل : بنو تميم . وكانوا على أن يحالفوا الأزد فتركوهم وحالفوا بني تميم . . ثم انضموا إلى الاساورة السيابجة ،

١ - الموالى في العصر الأموي ، ص : ١٤

وكانوا قبل الاسلام بالسواحل ، وكذلك الزط وكانوا بالطفوف
يتبعون الكلاء ، فلما اجتمعت الاساورة والزط والسيابجة تنازعته
بنو تميم فرغبوا فيهم ، فصارت الاساورة في بني سعد ، والزط
والسيابجة في بني حنظلة (١) .

وقد كثر نوع مولى الموالات بعد الاسلام ، لأن الاسلام
أعز العرب ورفع من شأنهم حتى صاروا سادة وأصحاب شوكة
وقوة فكان أهل البلاد المفتوحة . . حينما يسامون ، ينضمون الى
العرب ويدخلون في خدمتهم ، ويتحالفون معهم لكي يعتزوا
بشوكتهم وقوتهم وبذلك يصبحون موالى . . بالخلف والموالات (٢) .
وقد روى عن الرسول (صلعم) قوله : الولاء لجمعة النسب .
وصاحب الولاء يرث المولى اذا لم يكن له وارث ويعقل عنه .
وقد جعل بعضهم للرجل وللاء من يسلم على يديه وحجتهم في ذلك
حديث تميم الداري قال : سألت رسول الله (صلعم) عن المشرك
يسلم على يدي مسلم ، فقال : هو أحق الناس وأولاهم بحياته ومماته ؛
وقضى به عمر بن عبد العزيز (٣) . وكان من قوة هذه الرابطة
الاجتماعية وانتشارها أننا لو استعرضنا المعروفين من المسلمين غير
العرب في عهود الاسلام الاولى لوجدنا اسم كل واحد منهم مقرونة

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٦٦ - ٣٦٧

٢ - الموالى في العصر الاموي ، ص : ١٤

٣ - ابن رشد : بداية المجتهد ، ج : ٢ ، ص : ٣٥٦

بكلمات : مولى فلان ، او مولى القبيلة الفلانية . فبال ، مؤذن
الرسول ، مولى أبي بكر ، وسلمان الفارسي مولى بني عبد القيس ،
ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وربيعة الرأي مولى آل المنكدر التميميين ،
وسعيد بن جبير مولى بني دابة بن الحارث ، والحسن البصري كان
أبوه مولى زيد بن ثابت الانصاري وأمه مولاة أم سلمة (١) ،
وبشار بن برد مولى بني عقيل ومحمد بن منذر الشاعر مولى بني
صبير بن ربوع ، وأبو حازم سلمة بن دينار مولى الاسود بن
شعبان المخزومي ، وزباد بن ميسرة مولى عبد الله بن عياش بن أبي
ربيعة القرشي (٢) ، وعمرو بن عبيد مولى بني تميم ، وأبو الهذيل
الغلاف مولى بني عبد القيس ، وأبراهيم بن سيار النظام مولى
الزياديين ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ مولى كنانة (٣) ،
وغيرهم كثيرون . ونقل الاستاذ أحمد أمين عن (ولها وزن) أن
أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي ، وكان هؤلاء
الموالي يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم
فرساً في جنسهم وفي لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ، ثم
دخلوا الاسلام ، ثم أعتقهم مالكوهم العرب فكانوا موالي لهم ؛
وبذلك صاروا أحراراً ، ولكنهم ظلوا في حاجة الى حماية ساداتهم ،

١ - الموالي في العصر الاموي ، ص : ٨٣ وما يليها

٢ - البيان والتبيين للجاحظ ، الجزء الاول وحواشيه طبعة هارون .

٣ - الدكتور البير نادر : فلسفة المعتزلة ، ج : ١ ، ص : ١٥

وما يليها .

فهم حاشية العرب وأتباعهم في السلم والحرب (١) . ويحدثنا
البلاذري ان ابا مسعود الكوفي قال : كان مع رستم يوم القادسية
اربعة آلاف يسمون جنود شهنشاه فاستأمنوا على ان ينزلوا حيث
أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء ، فأعطوا الذي
سألوه ، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم وأنزلهم سعد
بحيث اختاروا ، وفرض لهم في ألف ألف ، . . ثم إن زياداً سير
بعضهم الى بلاد الشام بأمر معاوية فهم بها يدعون الفرس ، وسير
منهم قوماً الى البصرة فدخلوا في الاساوره الذين بها (٢) .

عاش المجتمع الاسلامي في عهوده الاولى متمسكاً بروابط
الرق والولاء بين المغلوبين وبين العرب وبروابط خضوع هؤلاء
العرب وأتباعهم وأهل الذمة جميعاً للدولة الاسلامية التي كانت في
أوج قوتها ومركزيتها في ذلك الحين حيث لم يشذ على هذه الرابطة
ولم ينفرط من عقدها الا بعض القبائل العربية التي كانت متأخرة في
سلم الحضارة والتمدن حين مجيء الاسلام فاعتنقت الاسلام على شكل
ساذج لم تستطع معه الرضا عن حياة اهل الحجاز وحكمهم فواصلت
الخروج على الامويين ، وإلا بعض حركات وانتفاضات ثورية ، غير
مجدية ، قام بها الأرقاء والموالي من الشعوب المغلوبة ، بين حين
 وآخر بزعامه آل البيت وتحريضهم حيناً ، وبزعامه غيرهم من الناقين

١ - فجر الاسلام ، ص : ١١٥

٢ - فتوح البلدان ، ص : ٢٧٩

حيناً آخر . فالارقاء من جهتهم كانوا رازحين تحت وضعهم البائس
ومخبولين وجهالاً ، الى درجة كانوا معها عاجزين عن إعداد أي
تفكير أكثر تقدماً من افكار طبقة مالكي الارقاء . . وهذا هو
احد اسباب الطابع العفوي كلياً وغير المنظم لانتفاضات الارقاء (١) .
وكذلك كانت حالة الموالي في القرن الاول الهجري ، فان حركاتهم
الثورية الناقمة لم تصبح على درجة من الخطورة الا في القرن الثاني
حيث تجلت في الحركة الشعبية بجميع مظاهرها ، وفي ثورتهم على
الحكومة الاموية بقيادة العباسيين ، ثم في ثورة المأمون على
الأمين .

ولكن تلك الروابط الاجتماعية المستقرة ما لبثت ان
ضعفت بتوالي الاجيال وتطور المجتمع الطبيعي ، ذلك التطور الذي
كان من مظاهره ازدياد اتساع الامبراطورية الاسلامية ، حيث
أدت الحروب والفتوحات الى زيادة عدد الرقيق في المجتمع زيادة
كبيرة ، فقد كان الرقيق في ذلك العهد أهم عنصر من عناصر الانتاج
واثروة لأن قوة الانتاج الرئيسية في عصر الرق هي الرقيق .
فيحدثنا البلاذري مثلاً ان الربيع بن زياد الحارثي ولي بعض نواحي
سجستان مدة سنتين ونصف فحاصر مدينة زرنج فصالحه مرزبانها
أبرويز على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ، وانه
سبى في ولايته هذه أربعين ألف رأس ، ثم ولي عبد الرحمن بن

١ - موجز الاقتصاد السياسي ، القسم السادس .

سمرة بن حبيب بن عبد شمس سجستان فأتي زرنج ، بعد نقضها
الصلح ، فحصر مرزبانها في قصره في يوم عيد لهم فصالحه
على ألفي ألف درهم وألفي وصيف (١) . وذهب محمد
بن القاسم الى فتح بلاد السند فوصل الى الملتان
وحصر أهلها فلما عطشوا نزلوا على الحكم فقتل محمد المقاتلة وسبى
الذرية وسبى سدنة البلد (٢) وهم ستة آلاف وأصاب ذهباً كثيراً (٣) .
ولما استخلف المنصور أمير المؤمنين ولي معن بن زائدة
الشيواني سجستان . . . وكانت عدة من سبى وأسر زهاء ثلاثين
ألفاً (٤) . وكان يوافق نمو أسلوب الانتاج القائم على الرق طلب إلى الرقيق
يتزايد باستمرار . فلم يكن للأرقاء ، بصورة عامة ، أية عائلة فكان
الاستثمار الضاري يؤدي الى هلاكهم بسرعة . وغدا الامر يتطلب
دائماً أرقاء جدد . وكانت الحرب المزود الأ كبر بالأرقاء . فكان
يحول الى أرقاء ليس الجنود الأسرى وحسب ، بل كذلك جزء
كبير من أهالي البلدان المفتوحة عنوة ، في بعض الأحيان . وغدت
تجارة الرقيق أحد الفروع الأكثر ربحاً والأكثر ازدهاراً ، وقامت
لهذا الغرض مراكز خاصة وأسواق يلتقى فيها البائعون والمشترون

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٨٦

٢ - البلد : المعبد

٣ - فتوح البلدان ، ص : ٤٢٧

٤ - المرجع السابق ص : ٣٩٢

القادمون من بلدان بعيدة (١) فكان في بغداد شارع يسمى «شارع دار الرقيق» .. وسمي تاجر الرقيق «نخاساً» .. واشتهر كثير من النخاسين في بغداد ، وسبب شهرتهم ما لهم من جوارح حسان يأوي إليهن الشعراء والأدباء ، منهم بالكرخ مثلاً نخاس يكنى «أبا عمير» كان له جوارح قيان لهن ظرف ، وكان من جوارحه جارية تسمى «عبادة» هويها عبد الله محمد بن البواب فيقول :
لو تشككى أبو عمير قليلاً لأتيناها من طريق العيادة
فقضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مقلتي عبادة (٢)
وقد كثر الرقيق كثرة بالغة كما كثرت أجناسه وألوانه حتى أنهم وضعوا الكتب في ميزات كل جنس منه وفي طرق تمييز الحسن من الرديء منه كما فعل الجاحظ وغيره . ومما يعطينا فكرة عن كثرة عدد الرقيق ماروي عن الرشيد من أنه كان يملك زهاء ألفي جارية من المغنيات والخدمة في الشراب .. وأنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية (٣) . هذا من جهة الخدم والمغنيات والسرديات فبالك من جهة الذكور الذين يستخدمون في زراعة الاراضي وفي الصناعات ؟!

يبد أن نظام الرق تمزقه تناقضات مستعصية تؤدي في النهاية

١ - موجز الاقتصاد السياسي ، القسم الخامس

٢ - ضحى الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١٥ - ١٦

٣ - المرجع السابق ، ص : ٩

الى انهياره . فان شكل الاستثمار الذي يقوم على الرق يدمر القوة
المنتجة الرئيسية في المجتمع ، ألا وهي الرقيق .. فالحصول على الأرقاء
الجدد ورخص ثمنهم هما شرطا وجود الاقتصاد القائم على الرق .
لقد كانت الحرب ينبوعاً لا ينضب للرقيق . وكانت قدرة المجتمع
العسكرية تقوم في بادئ الامر على جهود القبائل العربية ثم على
جهود صغار المنتجين من الاحرار والموالي ، الفلاحين والصناع ،
من الفرس الذين كانوا يؤلفون القسم الاعظم من الجيش . ولكن
مزاحمة الانتاج الكبير ، القائمة على العمل المستعبد الرخيص ،
والاعباء المملوكة والحروب المنازعات المستمرة كانت تقضي على
الفلاحين والصناع . فرأينا الملاكين والمستثمرين يستغيضون عنهم
بأعداد كبيرة من الرقيق في الزراعة والحرف حيث أنشئت
استثمارات كبرى لتربية الماشية والزراعة والصناعات ؛ ومن لا يعرف
زنوج البصرة الذين كانوا يعملون في مزارعها والذين بلغ من
كثرتهم ان ثاروا أيام المعتمد واحتلوا البصرة وما جاورها وبنوا
الحصون والمدن وظلوا يقاومون جيوش الخليفة ، بضع عشرة سنة .
ورأينا ايضاً الخليفة المعتصم يخذل الأرقاء الاتراك . فقد استقدم سنة ؟
٢٢٠ هجرية قوماً من بخارى وسمرقند وفرغانه وأشروسنه
وغيرها من البلاد التي نسميها « تركستان » وما وراء النهر ،
اشترأهم وبذل فيهم الاموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق

الذهب (١) . ولم يكن شراء المعتصم لهم بقصد الاسترقاق والخدمة
وانما بقصد تجنيدهم والاستظهار بهم . لقد قدم العباسيون الفرس بعد
قيامهم على الامويين وأخذهم السلطة من ايديهم ، وبعد الحرب بين
الأمين والمأمون وانتصار هذا الاخير بجيوشه الخراسانية على أخيه
الأمين ، واخذ نفوذ هؤلاء الفرس ، وخصوصاً الاسر الاقطاعية
منهم (اسر الدهاقين والمرازبة القدماء) يتعاضم . فلم يهدأ هؤلاء
الفرس منذ رأوا الاتراك تحتل مراكزهم في الدولة العباسية وتستبد
بالسلطان دونهم ، وتقصيههم عن أماكنهم . لقد كان الفرس في
العصر العباسي الاول هم عماد الدولة ، وييدهم تصرف شؤونها
وكان الخليفة يعتمد عليهم في اهم الامور ، وهم يحتفظون له بمظهر
الاجبة والجلالة ، ثم ينشرون سلطانهم ؛ فاذا احس الخليفة منهم
استبداداً اوقع بهم ، كما فعل المنصور بأبي مسلم الخراساني ،
والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل ، ولكنهم سرعان
ما يستردون نفوذهم . فلما جاء الاتراك ابعدهم عن منزلتهم وغلبوا
على الخليفة دونهم . فانكش الفرس على حنق ، ولعبت بهم العصبية
الفارسية ، واخذوا يدسون الدسائس ويدبرون المؤامرات
ويخصون انفسهم بالرجال والسلاح ، ويرمون الى اقتطاع البلاد
والاستيلاء عليها — وخصوصاً بلادهم الفارسية — والاستقلال بها

١ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ٣

عن خلفاء بغداد (١) فأخذ العالم الاسلامي في التجزؤ والتفتت شيئاً فشيئاً واصبح اهم مظهر يأخذ بالابصار في اوائل القرن الرابع الهجري ما حصل للدولة الاسلامية من الانقسام . . حيث صارت عبارة عن دول متعددة مستقلة ، علاقة بعضها مع بعض علاقة مخالفة احياناً وعداً غالباً واصبح لكل دولة مالها وجندها وادارتها وقضاؤها وسكتها واميرها ، ان اعترف بعضها بالخليفة في بغداد حيناً من الزمن ، فاعتراف ظاهري ليس له اثر فعلي (٢) ، فهي مستقلة في جميع امورها عن الخلافة ؛ وقد كانت فارس والري والجل ، في ذلك العهد ، في ايدي بني بويه ، وكرمان في ايدي بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الاخشيد ، والمغرب وافريقيا في يد الفاطميين الذين استولوا على مصر ايضاً في عام ٣٥٨ ، وخرسان في يد نصر بن احمد الساماني ، والاهواز وواسط والبصرة في يد البريديين واليمامة والبحرين في يد القرامطة ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، ولم يبق للخلافة العباسية الا بغداد (٣) التي استولى عليها البويهيون في آخر الأمر ، فأصبحت الحالة كما يقول المسعودي : « وما أشبه أمور الناس بالوقت الا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الاسكندر بن فيلبس

١ - المرجع السابق ، ص : ٩٤

٢ - المرجع السابق ، ص : ٩٠

٣ - المرجع السابق ، ج : ٢ ، ص : ١

المكدوني الملك داريوش وهو دارا بن دارا ملك بابل الى ظهور
أردشير بن بابك الملك ، كل قد غلب على صقععه ، يحامي عنه ويطلب
الازدياد اليه ، مع قلة العمارة وانقطاع السبل وخراب كثير من
البلاد وذهاب الاطراف « (١) وقد أخذت تغلب على المجتمع
الاسلامي منذ ذلك الحين سمات الاقطاعية .

كان من نتيجة هذا الانقسام ان اضطرب حبل الأمن بين
الولايات والمدن الكبيرة الغاصة بالناس وخصوصاً الارقاء ،
وانقطعت سبل التجارة وانحصرت التجارة الواسعة في ايدي
الاغنياء من اصحاب القوة والنفوذ . وكان من جراء كثرة الحروب
والفتن بين الامراء والقواد وتنازعهم على النفوذ والسلطان ان
فسدت المشارب ، وبطلت المصالح ، وأتت الجوائح على التناء (٢)
ورقت أحوالهم ، فمن بين هارب جال ، وبين مظلوم صابر
لا ينصف ، وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره (٣) ؛
كما كان من جراء تجزؤ المملكة وانقطاع سبل التجارة
وكسادها أن أصبح الانتاج القائم على الرق غير رابح فكان كثير
من الاسياد ، وخصوصاً صغارهم ، يعمدون الى تحرير أرقائهم بالجملة ،
هؤلاء الارقاء الذين لم يعد عملهم يأتي بأية مداخيل ، فان العمل

١ - التنبيه والاشراف ، ص : ٣٤٦ - ٣٤٧

٢ - التناء : الفلاحون

٣ - مسكويه : تجارب الامم ، ج : ٢ ، ص : ٩٧

المستعبد كان يستنزف عمل الارقاء الذين لم يكونوا يعيرون الانتاج أي
اهتمام إذ لا مصلحة لهم فيه . فتمر كزت الثروات من منقول ورقيق
وأراضٍ في أيدي قليلة ، وانحدر غالبية السادة الاحرار القدماء الى
طبقة الصناع والفلاحين والفقراء من الموالي ؛ فاختلط هؤلاء
بأولئك وضاعت الروابط الاجتماعية القديمة .

الوضع الاجتماعي والطبقي في القرن الرابع الهجري

حيثما نظرنا الى كل قطر من أقطار العالم الاسلامي في ذلك العصر ، رأينا الثروة غير موزعة توزيعاً عادلاً ولا متقارباً ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم مفرط ، وبؤس مفرط ، وإمعان في الترف يقابله فقدان القوات (١) . فقد كان الناس الأحرار في هذا القرن ثلاث طبقات متميزة : الطبقة الأولى ، طبقة الأرسقراطيين من خلفاء ووزراء وتجار كبار وأشراف ، والطبقة الوسطى من تجار متوسطين وملاك متوسطين ونحوهم ، وهي طبقة أصبحت قليلة العدد ، وطبقة فقيرة وهي عامة الشعب من الأرقاء المتحررين وصغار الفلاحين والصناع والعلماء الذين بعدوا عن الخلفاء والوزراء والأمراء .

فأما أفراد الطبقة الأولى ، فكان المال يتدفق عليهم وهم ينفقونه في إسراف ، هم ونسائهم واتباعهم .. فالخليفة مع ضعفه كان يعد الرئيس الديني حتى للبلاد المفصولة . فكان يجبي خراجاً من هذه البلاد ثم يسرف فيه هو ونسائه . يحكون أنه مدح شاعر امرأة من البيت المال ك فحشت فمه دراً باعه بعشرين ألف دينار . وامتلاّت بيوت هذه الطبقة بالجوارى والغلمان من سود وبيض ، حتى قالوا : إنه بلغ عدد خدم المقتدر

١ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ٩٧

(الذي قتل سنة ٣٢٠ هـ) أحد عشر ألف خصي من الروم
والسودان ؛ الى غير ذلك من القصور الفسيحة والغرف العديدة ،
حتى أن معز الدولة بنى داراً في بغداد وأنفق عليها ثلاثة عشر مليون
درهم (١) . وأنشأ عضد الدولة البويهى بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى
سوق الماء اليه خمسة آلاف ألف درهم . والوزير ابن مقلة (وزير
المقتدر والمتقي والراضي) يربي الحيوانات في قصره ويعني بها أكبر
عناية ، فكان له بستان عظيم ، عدة أجربة ، شجر بلا نخل ، عمل
له شبكة أبريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر
كالقماري والدبّاس والهزار والبيخ والبابل والقبج ؛ وكان فيه من
الغزلان والنعام والأيتل وحمير الوحوش ؛ وبشر مرة بأن طائراً
بحرياً وقع على طائر بري ، فباض وفقس ، فأعطى من بشره بذلك
مائة دينار . والوزير أبو الحسن بن الفرات كان يملك أموالاً
كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار ، وكان يستغل من ضياعه في
كل سنة ألفي ألف دينار وينفقها (٢) ؛ وكان الوزير المهلبى (وزير
معز الدولة البويهى) كثير الشغف بالورد ؛ روى من شاهده قال :
شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتاع له في ثلاثة ايام ورد بالف دينار ،
فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها
فوارات عجيبة ، يطرح الورد في مائها فتنفضة على المجلس فيقع على

١ - المرجع السابق ، ص : ١٢ - ١٣

٢ - المرجع السابق : ج ١ ، ص : ١٠٣ - ١٠٤

رءوس الجالسين ؛ وبعد شربه عليه ، وبلوغه ماأراد منه ، انهبه (١) .
 وكان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله ، أنه كان اذا أراد
 أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله ، وقف من جانبه الايمن
 غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجروداً ، وكان يستعمله كثيراً ،
 فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها
 الى غلام آخر قام من الجانب الايسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل
 الاولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية (٢) .
 وكان الوزير صاحب بن عباد يعجبه الخبز ويأمر بالاستكثار منه
 في داره ، فكان جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخبز
 الفاخرة الملونة (٣) .

وانتشرت مجالس الشراب ، ووضعت لها القواعد والقوانين
 والآداب كالذي فعله الشاعر « كشاجم » في تأليف كتابه « أدب النديم »
 وتفننوا فيما يكتب من الشعر على القناني والكاسات . واعتاد
 الخلفاء الوزراء والامراء مجالس الشراب وبالغوا في الاسراف
 فيها (٤) ، فكان في بيوت الكبراء الى جانب صاحب المطبخ رجل
 يسمى الشرابي شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة

١ - المرجع السابق ، ص ١٠٤

٢ - أقسام ضائعة من كتاب « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » لـ هلال

الصايي ، جمع مخائيل عواد ، ص : ٣١ - ٣٢

٣ - الثعالبى : يتيمة الدهرج : ٣ ، ص : ١٩٠

٤ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٥

والروائع (١) ، وكان هذا الترف يستتبع عدداً كبيراً من
المغنين والمغنيات (٢) .

وتفننوا في الصناعات الجميلة من انواع الحللي والدقسة في
النسيج وزر كشة الثياب وانواع العطور ، والنقش والتصوير ،
واصناف الازياء والمأكول والمشروب ، والبساتين والحدائق ، والغناء
والموسيقى مما يطول شرحه ...

وبلغوا من الاناقة في المعيشة ان جعلوا للظرف والظرفاء
قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وألفوا في ذلك
الكتب كالموشى للوشاء ، و « حدود الظرف » له ايضاً ، و « ما
يقدم من الاطعمة وما يؤخر » للرازي ، و « ترتيب أكل الفواكه »
له ايضاً ، و « آداب الحمام » له ايضاً ، و « الزينة » لحنين بن اسحق ،
و « الهدايا والسنة فيها » لابراهيم الحربي ، و « والنبذ وشربه في
الولاثم » لقسطا بن لوقا .. الخ ، فقال صاحب الموشى :

« أعلم ان من كمال ادب الادباء ، وحسن تظرف الظرفاء
صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ..
وانهم لا يداخلون احداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء في
كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مسر سره
ولا يسألون عما ووري عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب

١ - آدم منز : ج ٢٠ ، ص ٢٠٣

٢ - ظهر الاسلام ، ج ٢ : ص ١٣

عنهم فهمه ... ألا ترى أنهم لا يتبصقون ولا يتشاءون ولا يستنثرون
ولا يتجشأون» (١) .

ووضعوا قوانين الظرف تفصيلاً كما وضعوها إجمالاً ،
فقوانين الظرف في الزي ، وفي التعطر ، وفي الشراب ، وما هو
ظرف في الرجال لا في النساء ، وما هو ظرف في النساء لا في
الرجال ، وهكذا (٢) .

وكان من مظاهر نعمة الاغنياء السكنى في السرايا صيفاً ، والثلج لشرب
الماء البارد يستحضرونه من الأماكن البعيدة كما استعملوا في البيوت المراوح
المبلولة بالماء من الخيش يحرر بها بعض الخدم . وكان هذا هو النظام
المتبع للتبريد في ذلك العصر . واتخذوا في بيوتهم الأماكن الواسعة
توضع فيها الأرائك يجلسون عليها ليلاً لسماع الغناء وللشراب
وللحديث اللذيذ .. وبالعقول المترفون في كل شيء في الحياة وفي
المات ، حتى ان قريباً من اقرباء سيف الدولة الحمداني مات ، فغسل
تسع مرات بأنواع مختلفة من العطور السائلة (٣) . وكفن أحد
أولاد الملوك سنة ٣٧٥ هـ في ستين ثوباً . (٤)

وقد كثر الرقيق في هذا العصر لدى هذه الطبقة كثرة

١ - الموشى للوشاء ، ص : ١٩٢

٢ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١٠٧

٣ - ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ٢١ - ٢٢

٤ - شوقي ضيف : المذاهب الفنية في الشعر العربي ، ص : ١٧٩

بالغة ، وامتلاّت القصور به ، وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية
فكثر نسل الجوّاري .. واختلطت الدماء ، حتى الخلفاء أنفسهم
كانوا في هذا العصر من نسل الجوّاري . وكان هذا الرقيق على
اختلاف أنواعه يقوم بأعمال كثيرة ، وتغلغل في الحياة الاجتماعية .
فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة في حروبها ، حتى
لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب .. ومنهم من يقوم بالأعمال الصناعية
والتجارية لسادتهم ، ومنهم طبقة الخصيان ، وقد انتشروا في هذا
العصر انتشاراً كبيراً وكثر استخدامهم في بيوت الخلفاء والأغنياء
حرصاً على النساء ، ومنهم من نبغ في القيادة الحربية وبلغ بعضهم
منزلة عالية في الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء .

وكثر تعليم الجوّاري الغناء ، واتخذ أصحابهن لهن بيوتاً معدة
للسماع في الأحياء المختلفة ، وكثرت هذه البيوت في بغداد في هذا
العصر ، حتى قال أبو حيان التوحيدي في كتابه الامتاع والمؤانسة :
« وقد احصينا — ونحن جماعة في الكرخ — اربعمائة وستين جارية
في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان
البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا
سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ،
وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط
في وقت ، أو ثمل في حال ، أو خلع العذار في هوى قد حالفه

واضناه» (١). وهذه المحال العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس
 للسمع ولم يتخرج منها احد.. وكانوا يطربون فيها طرباً صاخباً، فمنهم
 من يشق إزاره، ومن يضرب بنفسه الأرض، ومن يحملق عينيه،
 ومن يستغيث ومن يحـو قل . وكانت هذه البيوت تسمى «بيوت
 القيان». والقينة في اللغة، الأمة، مغنية كانت أو غير مغنية،
 ولكنها في العرف لا تطلق الا على الأمة المغنية. ومن هؤلاء القيان
 من كن يتاجرن بالعشق فيوقعن في أحبالهن الشباب الموسرين
 حتى يستنزفن ما لهم ثم يلفظنهم (٢). وكان من كثرة بيوت القيان
 أن فرض عضد الدولة البويهى على الراقصات والقحاب بفارس
 ضريبة كان يضمنها (٣). ولعل خير دليل على الاهتمام بالموسيقى
 والغناء في ذلك العصر، تلك الموسوعة الكبيرة التي ألفها أبو
 الفرج الاصفهاني — نديم الوزير المهلبى — في الاغاني والادب.
 أما الميل الى الغلمان فقد انتشر في هذا العصر انتشاراً
 كبيراً في الاوساط المستهتره حتى وعند بعض الادباء والعلماء ورجال
 الدولة؛ ونجد الكثير من أحاديث الغلمان في كتب الادب وتراجم
 الرجال والادباء. ومن يرجع الى يتيمة الدهر للثعالبي يجد المزيد
 من ذلك؛ ويبرز أثر هذا الامر بصورة واضحة في المقامات.

١ - الامتاع والمؤانسة، ج: ٢، ص: ١٨٣

٢ - ظاهر الاسلام، ج: ص: ١٢٤

٣ - ادم متر، ج: ٢، ص: ١٤١

ويحدثنا أبو حيان التوحيدي ، في الامتاع والمؤانسة ، أنه كان في بغداد خمسة وتسعون غلاماً جميلاً يغنون للناس ، وأنه كان بها صبي موصل ي مغن « ملاً الدنيا عيارة وخسارة ، وافترض به أصحاب البنسك والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو ، ودله الخلوب ، وتمنعه المطمع ، وإطاعه الممنوع ، وتشكيكه في الوصل والهجر ، وخلطه الالباء بالاجابة ، ووقوفه بين لا ونعم ؛ إن صرحت له كنى ، وإن كنى له صرح ؛ يسرقك منك ، ويردك عليك ، يعرفك منكراً لك ، وينكرك عارفاً بك ، فحاله حالات ، وهدايتة ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادي ومنية السائق والهادي » (١) . والسبب في شيوع هذه الفاحشة هو ان الامم في أدوار مدنيته اذا كانت المرأة فيها متأخرة بوجه الاجمال عن الرجل في الثقافة وحسن المعاشرة ، تشيع فيها عادة تفضيل منادمة الجميل المثقف على منادمة المرأة ، كما حدث عند اليونان والرومان قديماً وفي أوروبا خلال عصر النهضة ؛ ولم يكن الأمر على خلاف في ذلك المجتمع الاسلامي خلال القرنين الثالث والرابع حيث تراجعت المرأة عن مكاتها التي كانت لها في أيام

١ - الامتاع والمؤانسة ، ج : ٢ ، ص : ١٧٤ - ١٧٥

الاسلام الاولى وانسحبت من ميدان مشاركة الرجل في الحياة العامة (١).
وهناك لسعيد الخالدي — وهو أحد الشعراء الشقيقين المعروفين
باسم الخالدين — قصيدة دالية مشهورة يصف فيه غلامه بأنه
معشوقه وخازن داره ومدير ماله وناقد شعره وطاھيه ونديمه (٢).
ولعل ما ذكره فريدريك أنجلز عن حالة المرأة في اليونان القديمة
ينطبق تمام الانطباق على حالة المرأة المسلمة الحرة في ذلك العصر.
قال فريدريك أنجلز :

« لم تكن فتيات أثينا يتعلمن غير الغزل والنسج والخياطة ،
وغير القليل من القراءة والكتابة . فقد كن سجينات ، اذا صح
القول ، ولا يعاشرن إلا النساء الأخريات . فكان الحريم جزءاً
متميزاً من البيت ، في الطابق العلوي او في المؤخرة ؛ فلا يصل اليه
الرجال ، وخصوصاً الغرباء ، بسهولة وتلتجىء النساء اليه عند
زيارة الذكور للبيت . ولم يكن ليخرجن الا مصحوبات باحدى
الجواري ، وكن في البيت يخضعن لمراقبة شديدة . . واذا وضعنا
إنجاب الاطفال جانباً ، فان المرأة لم تكن في نظر الرجل الاثيني الا
الخادمة الرئيسية . لقد كان للرجل هواياته الرياضية ومناقشاته العامة ،
أما المرأة فانها كانت محرومة من هذه الاشياء . وعدا عن ذلك

(١) - راجع الجزء الثالث من كتاب «المرأة العربية في جاهليتها واسلامها»

لعبد الله عفيفي والجزء الاول من ضحى الاسلام لأحمد أمين ص : ١٠١

(٢) - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١٣٩

فقد كان تحت تصرف الرجل ، في أغلب الاحيان ، نساء رقيقات ،
وكان البغاء منتشرًا انتشاراً كبيراً ومسموحاً به من قبل الدولة .
وعلى أساس هذا البغاء تطورت سجايا أولئك النساء اليونانيات اللواتي
ارتفعن عالياً ، بفضل الثقافة وتربية الذوق الفني ، فوق المستوى
العام للعالم النسوي القديم ... وقد أصبحت العائلة الأثينية بمرور
الزمن المثال الذي يحتذىه لبقية الا يونيين فحسب ، بل إن جميع
يونانيي المناطق المجاورة والمستعمرات قد أخذوا شيئاً فشيئاً في
احتدائه في علاقاتهم المنزلية ... وكان الأزواج اليونانيون ينجلون
من إبداء حبهم لزوجاتهم ، ويتمتعون بجميع انواع العلاقات الغرامية
مع القيان ؛ ولكن انحطاط النساء كان له أثره في انحطاط الرجال
حيث وصل بهم هذا الانحطاط الى الارتقاء في ممارسة
اللوادة البشعة والى تحقير أنفسهم عندما حققوا آلهتهم
بأسطورة غانيميد (١) .

وقد اشتهر من هذه الطبقة العليا جماعة كانوا أرسقراطيين
النسب كانتسابهم الى علي وفاطمة أو كالبكريين والعمرين أو
انتسابهم الى بيوت اشتهرت بالمجد كانتسابهم الى الابناء ، ويعنون

١ - فريدريك انجلز : أصل العائلة والملكية الفردية والدولة ، ص : ٦٣ -

٦٤ فرنسي . اما أسطورة غانيميد فهي ان غانيميد هذا كان أميراً طروادياً
جيلاً وابناً لتروس ولعروس الماء كاليرووي . وقد وقع زوس كبير الآلهة في
حبه فاتخذ هيئة النسر واختطفه وجعله ساقياً للآلهة .

بالأبناء من كانوا من أبناء الجند الذين أسسوا الدولة العباسية (١) .
 وكان هناك أرسقراطيو المال أيضاً ، فقد أصبحت للمال قوة
 عظيمة ، حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى ، وكل
 شيء عرض من أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر
 لتحصيله أعلا طبقات الشعب (٢) . وقد تسلطت هذه الطبقة ،
 بطبيعة الحال ، على الحكم فكانت الحكومة أرسقراطية في ذلك
 الزمان ، حتى أدى الحال الى ظهور جيل لكل طائفة من أصحاب المناصب ،
 فكان هناك وجوه الحضرة من اولاد الوزراء والكتاب والامراء
 والاشراف . وكان اولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أبناء العمال .
 وكانت المناصب شبه وراثية فقد ذكر ان الوزير ابن مقلة خلفه
 ابنه وهو في الثامنة عشرة ؛ وكذلك تولى ابو الفتح بن العميد
 الوزارة بعد ابيه وله من العمر إحدى وعشرون سنة ، وقد ولي
 الوزارة من آل خاقان اربعة وزراء في سبعين عاماً ، وكذلك
 تقلد اربعة من بني الفرات الوزارة في خمسين سنة (٣) . وخلصوا يد
 الخليفة من كل سلطة فقد احتفظ لنفسه ، كرئيس ديني أعلا للعالم
 الاسلامي ، بحق منح الالقاب . فكان يمنح الملوك والامراء والوزراء
 والقواد وكبراء هذه الطبقة ألقاباً مختلفة مثل : أمير الامراء ،

١ - ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ٢١ - ٢٢

٢ - آدم متر ، ج : ٢ ، ص : ١٥٠

٣ - المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٤٩

وسيد الامراء ، وملك الملوك (شاهنشاه) ، وسيف الدولة وناصر الدولة ، وذو الكفایتين . الخ . وقد علق البيروني على هذه الالقاب الفخمة التي كانت الخلفاء يمنحونها قال : « لما لقب بنو العباس عمالهم ومحبيهم وأعداءهم على السواء بالالقب الفارغة المضافة الى الدولة — كعضد الدولة وسيف الدولة . الخ — ذهب ملكهم ، لأنهم تجاوزوا بها كل حد معقول ، واستمرت الحال على هذا المنوال ، حتى أخذت بطانتهم تطالب بما يميز بعضها عن بعض . ومنحهم الخلفاء ألقاباً مزدوجة ، فطالب غيرهم بمثلها وبذلوا المال في سبيلها ، فاستوجب الامر مرة أخرى منح ألقاب ثلاثية تضاف الى لقب شاهنشاه ، تمييزاً لهم عن حاشية الخليفة . وأصبح الامر مخالفاً لكل ذوق سليم وقبيحاً جداً ، فاذا أراد احدهم ذكرها عجز عن ذلك قبل ان يبدأ ، ومن أراد كتابتها اضاع وقته ، ومن رغب في تعدادها فربما فاتته وقت الصلاة » (١) .

ولغى هذه الطبقة العليا وترفها كانت كل أنظار الناس موجهة الى الخلفاء والامراء والوزراء ؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه الا في خدمتهم ؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه الا في مدحهم ؛ والتجار إن وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر او جوارٍ لا يجدون نفاقاً لها الا في قصورهم ، والصناع اذا أحسنوا

(١) — دونالدسون : عقيدة الشيعة ، ص : ٢٧٦

صناعة شيء فهم مقصدهم (١) .

أما الطبقة الوسطى فانها تتدرج بين حالة هذه الطبقة الغنية وحالة الطبقة الكبيرة الفقيرة التي سنتحدث عنها فيما يلي ، ولا مجال للتحدث عن ما يميز هذه الطبقة الوسطى لأنها أصبحت ضئيلة الأثر قليلة الافراد لتمرکز الثروات وتعدي القوي على الضعيف .
واما الطبقة الفقيرة ، التي هي عامة الشعب بما فيهم العلماء الذين لم يتصلوا بالخلفاء والامراء ومن اليهم ، فقد كانت تعيش ، الى جانب هذا الغنى الواسع والنعيم المفرط ، في فقر مدقع وبؤس أسود وفقدان للقوت . فالعالم اذا لم يكن صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب ، كما حكى عن أبي زكريا يحيى ابن عدي المتوفى عام ٣٦٤ ، وكان من اكبر فلاسفة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين ؛ فقد ذكر عنه انه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري ، وانه كان يكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة .

وهذا ابو العباس الاصم (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) وهو من اكبر علماء خراسان ومحدثيها . . . فكان اذا ذهب الى المسجد للتحديث وجسد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم الى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على

التحديث ، وانما كان يورق ويأكل من كسب يده (١) .
وهذا عبد الوهاب البغدادي المالكي ، فقيه أديب شاعر له
المصنفات الرائعة في الفقه ، لم يكن في المالكيين أفقه منه في زمنه ،
ولما نزل معرة النعمان في رحلته اضاف له ابو العلاء المعري وقال فيه :
والمالكي ابن نصر زار في سفر
بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
اذا تفقّه احيا مالكا جدلاً

وينشر الملك الضليل ان شعر
هذا كله تضيق به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوت يومه ،
ويخرج عنها طالباً للرزق ؛ ولما شيعه اكارها قال لهم : « ولو وجدت
بين ظهرانكم رغيين كل غداة ماعدلت عن بلدكم » ثم أنشأ يقول :
سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخيلٍ كنت أهوى دنوه

وأخلاقه تنأى به وتحالف
فلما وصل الى مصر ، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها
فأكلها ، فزعموا انه قال وهو يتقلب : « لا إله إلا الله ، اذا عشنا
متنا » .

١ - المرجع السابق ، ص : ٣٠٦

وهذا أبو حيان التوحيدى البغدادي ، وهو ماهو في علمه
الواسع وأدبه الفياض ، وفلسفته ، وبلاغته ، وتصوفه . . وتأليفه
الكثيرة . . يقول محدثاً عن نفسه : « ولقد اضطررت بينهم بعد
العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ،
والى التكلف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين
والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى مالا يحسن بالحر
ان يرسمه بالقلم وي طرح في قلب صاحبه الألم » . ولما أعيته الحيل
تحوّل طلبه وملقه وريأؤه ونفاقه الى غيظ من الناس وحقد عليهم ،
فأحرق في آخر أيامه كتبه وقال : « إني جمعت أكثرها للناس
ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فخرمت
ذلك كله » (١) .

وقد ألف أحد الظرفاء كتاباً سماه : « الفلاكة والمفلوكين »
أي الفقر والفقراء ، حكى فيه أمثلة لكثير من العلماء الذين
أصيبوا بالفقر . من ذلك ما حكاه عن الأديب التبريزي الأديب
المشهور من انه اراد علماً يشرح له كتاباً معجماً فوصف له أبو
العلاء المعري ، وكان بعيداً عنه ، فحمل الكتاب في خرج على ظهره .
ومشى طويلاً حتى بلل العرق الكتاب وأتلفه . . . ووجدت أشعار
كثيرة في هذا العصر من جراء هذا يذكر فيها أن الفقر يلزم
العقل ، والغنى يلزم الجهل ، مثل الذي يقول :

١ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١١١

إني رأيت الدهر في حكمه يمنح حظ العاقل الجاهلا
وما أراني نائلاً ثروة كأنه يحسبني عاقلاً (١).
وجاء في مقامات بديع الزمان الهمداني على لسان أبي الفتح
الاسكندري :

الذنب للأيام لالي فاعتب على صرف الليالي
بالحق أدركت المني ورفلت في حبل الجمال (٢).
كما قيل شعر كثير في شكوى الزمان وسوء الحال وضم
الدنيا مثل قول المعري :

خسست يا أمنا الدنيا فأف لنا
بنو الخسيسة أو باش أخساء
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية
وإن نظرت بعين فهي شوساء

وقول ابن لنكك البصري :
يا زماناً ألبس الأحرار ذلاً ومهانة
لست عندي بزمان إنما أنت زمانة
كيف نرجو منك خيراً والعلا فيك مهانة
أجنون ما نراه منك يبدو أم مجانة
ويقول أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات :

١ - ظهر الاسلام ، ج : ٢ ، ص : ٨
٢ - مقامات الهمداني ، طبعة بيروت ، ص : ١٠٢

« وأواصل هذا الحديث بحديث آخر دفعنا اليه في هذه الايام . .
شاهدنا شيخاً من أهل العلم ساءت حاله وضاق رزقه واشتد نفور
الناس عنه ، ومقت معارفه له ، فلما توالى هذا عليه دخل يوماً منزله
ومد جبلاً الى سقف البيت واختنق به ، وكانت نفسه في ذلك .
فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كل
متصرف » (١) .

كانت المدن خلال القرون الثلاثة الاولى قد غصت بالناس ،
وخاصة بالارقاء الذين كانوا يتخلصون من الرق لاسباب عديدة .
ولما زالت الروابط الاجتماعية القديمة على النحو الذي أسلفنا ،
أصبح هؤلاء الموالى والعتقاء وأحفادهم طبقة كبيرة مهانة هائمة على
وجهها في المجتمع لا تملك شيئاً ؛ هذا بالاضافة الى ان سائر ولايات
الاسلام كانت في القرن الرابع غاصة بالعبيد الابق ؛ وكان من أول
ما يؤمر به ولاية النواحي في كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد
الآبقين ويحبسوهم ويساموهم لمواليهم ان استطاعوا (٢) . فكانت
المجاعات تفتك بالعدد الكثير من هؤلاء الفقراء المعدمين الهائمين
بسبب الاحتكار وقبض الناس أيديهم عن الفلح في الاكثر بسبب
ما يقع من العدوان في الاموال والجبائيات أو الفتن الواقعة في
انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة (٣) .

١ - المقابسات ، ص : ٢١٩

٢ - آدم متر ، ج ١ ، ص : ٢٧٩

٣ - ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٣٠٢

ففي سنة ٣٠٧ هـ ضمن أحمد وزيرى المقتدر ، حامد بن
العباس ، جباية السواد والاهواز وأصبهان بزيادة أربعمائة ألف
دينار عمداً هو عليه معتاد جبايتها في السنين السابقة ، فاحتكر
الحبوب وارتفعت أسعار الدقيق والخبز . فتجمع الناس وقوم من
أماثل العامة فتظلموا من زيادة السعر وضجوا في وجه الوزير الثاني
علي بن عيسى لما ركب . ثم نهب العامة دكاكين الجماعة من الدقاكين
بيغداد ثم اجتمعوا الى باب السلطان فضجوا . فتقدم المقتدر بأن
يكتب الى حامد بأن يبادر الى الحضور — من النواحي — وينظر
في أمر الاسعار فيزيل التربص ببيع الغلات لتنحط الاسعار . .
وتحرك الجند بعد ذلك اليوم في دار السلطان وضجوا لارتفاع
السعر وتحركت العامة في المساجد الجامعة بيغداد وكسروا المنابر
وقطعوا الصلاة بعد الركعة الاولى واستلبوا الثياب ورموا بالآجر
وكثر الجراحات واجتمع منهم في المسجد الجامع الذي في دار
السلطان عدد كثير على نصر الحاجب فوثبوا عليه ورجموه بالآجر
ثم صاروا في ذلك اليوم الى دار حامد بن العباس
فأخرج اليهم غلمانهم فرموا بالآجر والنشاب ، وقتل
خلق من العامة . ووجه حامد جماعة من غلمانهم . . فدخلوا المسجد
الجامع بالجانب الغربي على دوابهم فقتلوا جماعة ، وقتل أيضاً من
الجند عدة وبات الناس على صورة قبيحة من الخوف على أنفسهم
وأموالهم وحرمتهم . وضعف صاحب الشرطة عن مقاومتهم لكثرة

من تجمع من العامة . فلما أصبحوا صار من العامة عدد كثير إلى
الجسور فأحرقوها وفتحوا السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة
ودار غيره . فأنفذ المقتدر جماعة من الغلمان الحجرية في شذات
عدة لمحاربة العامة ، وركب هارون بن غريب الخصال في جيش
عظيم إلى باب الطاق فأحرق مواضع وتهارب العامة من بين يديه
إلى المسجد الجامع بباب الطاق ، ووكل هارون بباب المسجد وقبض
على جميع من وجد فيه ، ولم يفرق بين المستور والعيار ، وحملهم
إلى مجلس الشرطة ، فضرب بعضهم بالسوط وبعضهم بالدرية وقطع
أيدي قوم عرفوا بالافساد . ثم ركب يانس الموققي في اليوم التالي
فسكن الناس ونادى فيهم وزالت الفتنة . ثم ركب حامد في طيارة
يريد دار السلطان ، فقصدته العامة ورجموه بالآجر ، فأمر المقتدر
شفيعاً المقتدرى بالركوب لتسكين العامة ، فركب وسار في
الجانب الغربي ، وفيه كانت الفتنة ، فسكن الناس
ثم قبض على جماعة من العامة فضرب بعضهم بالسوط
وقطعت أيدي قوم عرفوا بالرجم . وضجت الرجال المصافية في دار
السلطان من زيادة السعر فتقدم المقتدر بالله بفتح الدكاكين والبيوت
التي لحامد وللسيدة (١) والامراء أولاد الخليفة والوجوه من أهل
الدولة ، وبيع الخنطة بنقصان خمسة دنانير في الكروبيع الشعير
بحسب ذلك ، وبمطالبة التجار والباعة أن يبيعوا بمثل هذا السعر .

(١) - أي والدة الخليفة .

فرضي العامة وسكنوا وانحل السعر . (١)

وفي سنة ٣٢٩ هـ التي قتل فيها بحكم (امير الامراء في عهد الخليفين الرازي والمتقي) اشتد الغلاء ببغداد وبلغ الكر من الدقيق مائة وثلاثين ديناراً ، وأكل الناس الحشيش ، وكثر الموت حتى كان يدفن في قبر واحد جماعة من غير غسل ولا صلاة ، وظهر من قوم ديانة وصدقة وتكزين ، ومن آخرين فجور وعصب وهم الاكثر (٢) . وفي سنة ٣٣٤ هـ افراط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة ، وأكل الناس الموتى والحشيش . . والجيف ، وكانت الدابة اذا رايت اجتمع الناس على الروث جماعة ففتشوه ، ولقطوا ما يجدون فيه من شعير واكلوه ، وكان يؤخذ بزر قطونا ويضرب بالماء ويبسط على طابق حديد ويجعل على النار حتى يقب ويؤكل ؛ ولحق الناس من ذلك في احشائهم أورام ومات أكثرهم ، ومن بقي كان في صورة الموتى . وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضراً فيصيح : الجوع ، الجوع ، الى ان يسقط ويموت ؛ وكان الانسان اذا وجد اليسير من الخبز ستره تحت ثيابه وإلا استلب منه ؛ والكثرة الموتى وانه لم يكن يلحق دفنهم ، كانت الكلاب تأكل لحومهم ، وخرج الضعفي الى البصرة خوفاً مفرطاً متتابعين لأكل التمر فتلّف أكثرهم في الطريق ، ومن وصل منهم مات بعد مديدة ؛

١ - تجارب الامم ، ج : ١ ، ص : ٧٣ - ٧٤ .

٢ - المرجق السابق ، ج : ٢ ، ص : ٨ .

ووجدت امرأة هاشمية قد سرقت صبياً فشوته وهو حي في
تنور فاكتت بعضه وظفر بها وهي تأكل البعض الباقي ، فضربت
عنقها ؛ وكانت الدور والعقارات تباع برغقان ويأخذ الدلال بحق
دلالة بعض ذلك الخبر، ووجدت امرأة أخرى تقتل الصبيان وتأكلهم
ثم فشا ذلك فقتلت عدة منهم (١) .

وجاء في رسالة لبديع الزمان الهمداني وجهها الى احد
ذوي الشأن قوله : « ولا ازيد الشيخ علماً بهراة وأهلها ، إنه قد
شاهد أحوالهم ، وعرف ما عليهم وما لهم ، ولم يغب عن ثاقب
فطنته الا القليل . ولكني أخبره بما عرض لها ولهم : فيهم فشت
الامراض الحادة فخبطت عشواء وأفنت رجلاً ، ثم جد الغلاء ،
وفقد الطعام ، ووقع الموت العام ، فمن الناس من لم يطعم اسبوعاً
حتى هلك جوعاً ، ومنهم من تبلغ بالميتة الى يومنا هذا ، وهو ينتظر
نجبه ، ليلحق صحبه . ومنهم من لا يجد القوت على كفه حتى يموت
والباقون أحياء كأنهم اموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق .
وان هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر المطالبات أكبر
وأهم .. » (٢) .

وقد استمرت المجاعات والابوة تفتك بالناس منذ ذلك
الحين حتى بلغ عدد سكان مدن العالم الاسلامي من الضالة والقلة ما

١ - تجارب الامم ، ج : ٢ ، ص : ٩٥ - ٩٦

٢ - مارون عبود : بديع الزمان الهمداني ، ص : ٤٠

بلغه في القرن الماضي . ومن يود الاطلاع على اخبار تلك المجاعات والشدائد فما عليه الا الرجوع الى كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » (١) للمقرزي حيث أحصى المؤلف فيه المجاعات التي حدثت في مصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٧٧٦ هـ .

وكان من سوء حالة هذه الطبقة الكبيرة المعدمة ان فشت في الناس أمور متناقضة وتبدت في حياتهم جميع المظاهر التي تنتج عادة من الفقر . وهذه الامور والمظاهر هي :

١ - انتشار الزهد ؛ فان كثيراً من الناس لما عز عليهم أن ينالوا ما يطلبون قللوا مطالبهم فزهدوا وتقشفوا وعلموا أنفسهم القناعة والكبت . فكثر الزهد من هذا الباب جرياً على قولهم : « اذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون » .

٢ - تفشي الحقد والحسد والكذب والخبث ، وانتشار الدجل والتخريف وتعلق الناس بالاسباب الموهومة في الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة : فتنجيم واعتقاد في الطوابع ، التي تسعد وتشقى ، وانصراف الى الكيمياء التي تقلب النحاس والقصدير ذهباً والا لتجاء الى دعوات الاولياء لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى ، وهذا الى الاعتقاد بالسحر والطلسمات والبحث عن الكنوز المخبوءة ونحو ذلك (٢) .

١ - نشرته مؤخراً دار « ابن الوليد » في حمص .

٢ - ظهر الاسلام ، ج : ١ ، ص : ١٢١ .

٣ - ما شاع في هذا العصر من لصوص سموا « الشطار » كانوا يقطعون الطريق على الناس ويفرضون إتاوات معينة على البيوت ، من لم يدفعها هوجم وأخذ ماله (١) .

وقد أخذ هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق في الظهور والازدياد منذ أن شرع نظام الرق في الانحلال والتفكك ، حيث تشرذم العتقاء والارقاء والآبقون ومارسوا اللصوصية للحصول على قوت يومهم . فيحدثنا البلاذري انه : « لم تزل سيسر وماوالدها مراعي لمواشي الاكراد وغيرهم ، وكانت مروجاً لدواب المهدي أمير المؤمنين وأغنামه ، وعليها مولى يقال له سليمان بن قيراط .. وشريك معه يقال له سلام الطيفوري ، وكان طيفور مولى أبي جعفر المنصور وهبه للمهدي . فلما كثر الصعاليك والذعار وانتشروا بالجبل ، في خلافة المهدي أمير المؤمنين ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم وحوزاً ، فكانوا يقطعون ويأوون اليها ولا يطلبون لانها حشد همدان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان بن قيراط وشريكه الى المهدي بخبرهم وشكيا عرضهم لما في ايديهما من الدواب والاغنام . فوجه اليهم جيشاً عظيماً وكتب الى سليمان وسلام يأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها واعوانهما ورعاتهما ويحصنان فيها الدواب والاغنام ممن خافه عليها . فبنيا مدينة سيسر وحصناها واسكنها الناس .. ثم ان الصعاليك كثروا في خلافة أمير المؤمنين الرشيد وشعثوا سيسر ،

١ - المرجع السابق ، ج : ٢ ، ص : ١٠ - ١١

فأمر بمرمتها وتحصينها ورتب فيها ألف رجل ، (١) . ويحدثنا
 أيضاً : « أن الحجاج أتى بخلق من زط السند واصناف ممن بها من
 الامم معهم اهلهم واولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسافل كسكر .
 فغلبوا على البطيحة وتنازلوا بها . ثم انه ضوى (٢) اليهم قوم من
 أباق العبيد وموالي باهلة وخول (٣) محمد بن سليمان بن علي وغيرهم ،
 فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية ، وانما كانت
 غايتهم قبل ذلك ان يسألوا الشيء الطفيف ويصيبوا غرة من اهل
 السفينة فيتناولوا منها ما امكنهم اختلاسه . وكان الناس في بعض
 ايام المأمون قد تحاموا الاجتياز بهم وانقطع عن بغداد جميع ما كان
 يحمل اليها من البصرة في السفن فلما استخلف المعتصم بالله تجرد
 لهم ، وولى محاربتهم رجلاً من اهل خراسان يقال له عجيف بن
 عنبثه ، وضم اليه من القواد والجند خلقاً ولم يمنعه شيئاً طلبه من
 الاموال . فرتب بين البطائح ومدينة السلام خيلاً مضمرة ملهوبة
 الاذئاب ، وكانت اخبار الزط تأتيه بمدينة السلام في ساعات من
 النهار او اول الليل ، وأمر عجيفاً فسكر عنهم الماء بالمؤن العظام
 حتى اخذوا فلم يشد منهم احد وقدم بهم الى مدينة السلام في
 الزواريق ، فجعل بعضهم بخاتقين وفرق سائرهم في عين زربة

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٠٧

٢ - ضوى : انضم

٣ - الخول : الموالي والخدم

والتغور» (١) ويقول بعض المؤرخين الحديثين ان النور هم احفاد هؤلاء الزط ، لان كلمة « زط » هي تعريب لكلمة « جت » الهندية ، ويطلق على النور في البلاد الاوربية اسم « gitane » . هذا ، وقد ذكر عبد القاهر البغدادي ان للجاحظ كتاباً اسمه « حيل اللصوص » ، فقال في لهجة متحاملة : « واما كتبه المزخرفة فأصناف منها كتاب في حيل اللصوص . وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة » (٢) .

وبلغ من شأن هؤلاء اللصوص في القرن الرابع الهجري انه كانت تخرج اليهم الجيوش للقضاء عليهم فيظهرون عليها في بعض الاحيان ، فقد وجه عضد الدولة وزيره المطهر بن عبدالله الى البطيحة لاستئصال اللصوص منها ، فالتاث عليه الامر ، وخشي انخفاض منزلته عند عضد الدولة .. فاختر الموت على ذلك واخذ سكيناً فقطع بها شرايين ذراعه جميعاً وسال دمه حتى مات (٣) ويحدثنا المحسن التنوخي عن ابيه قال : « أنفذني ابو عبد الله البريدي من واسط برسالة الى ابي بكر بن رائق فلقيته في حدود دير العاقول .. وانشدت اريد واسطاً .. وفي بعض الطريق خرج علينا اللصوص في سفن عدة ونشاب وسلاح شاك ، وهم نحو مائة نفس كالعسكر

١ - فتوح البلدان ، ص : ٣٦٨ - ٣٦٩

٢ - الفرق بين الفرق ، ص : ١٠٦

٣ - آدم متر ، ج ١ ، ص : ١٥٤

العظيم « (١) .

وكان من هؤلاء اللصوص قوم يسمون بالعيارين يتخذون
لهم لباساً خاصاً ويقول فيهم الشاعر :
خرّجت هذه الحروب رجالاً

لا لقحطان ولا لنزار

معشر في جواشن المصر يعدو

ن الى الحرب كالليوث الضواري

ليس يدرون ما الفرار اذ الأبـ

طال عاروا في القنا للفرار

واحد منهم يشد على أـ

فبين عريان ماله من ازار

ويقول الفتى اذا طعن الطعنة خذها من الفتى العيار

ويقول ابن الأثير : ان العيارين ظهروا في سائر المدن

الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب

الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم ؛ وقد يسمون أحياناً

شطاراً ، وكانوا يمتازون ايضاً بملابس خاصة (٢) .

وفي سنة ٣٣١ هـ استطاع اللص ابن حمدي ان ينتهب

أموال اهل بغداد ، وكان قد أعىي السلطان امره .. ومضى على

(١) المحسن التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص : ١١٨

(٢) ظهر الاسلام ، ج ٢ ، ص : ٣٢

الناس في ايام ابن حمدي وقت تحارسوا فيه بالبوقات في الليل وامتنع
عليهم النوم خوفاً من كبسات هذا اللص وأصحابه ، وختل المنازل
ببغداد من اهلها وصاروا يطلبون من يسكن الدار باجرة يعطاها
ليحفظها . وأغلقت عدة حمامات وتعطلت اسواق ومساجد (١) .
وكان اهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت . وفي
صيف سنة ٣٠٤ تفرغت العامة من حيوان كانوا يسمونه الزبزب
ذكروا انهم يرونه في الليل على سطوحهم وانه يأكل أطفالهم .
قالوا : وربما قطع يد الانسان اذا كان نائماً او ثدي المرأة
فيأكله . وكانوا يتحارسون طول الليل ولا ينامون ويتزاعقون
ويضربون الطسوت والصواني والهواوين ليفزعوه ؛ وارتجت بغداد
لذلك حتى اخذ السلطان حيواناً غريباً أبلق كأنه من كلاب الماء
وقال : هو الزبزب ، وانه صيد . فصلب على نقنق عند الجسر
الأعلى وبقي مصلوباً الى ان مات . فلم يغن ذلك ، الى ان
انبسط القمر وتبين للناس انه لا حقيقة لما توهموه فأمسكوا .
الا ان اللصوص وجدوا فرصتهم بتشغل الناس في سطوحهم
فكثرت النقبوب (٢) . وما كان الزبزب في الأصل حيواناً
بل وهماً نشأ من وجود اللصوص (٣) . وفي المقامة الرصافية لبديع

(١) آدم متر ، ج ١ ، ص : ١٢

(٢) تجارب الامم ، ج ١ ، ص : ٣٩

(٣) آدم متر ، ج ٢ ، ص : ١٧٥

الزمان الهمذاني ان عيسى بن هشام خرج من الرصافة ، يريد دار
الخلافة .. فقال « الى مسجد قد اخذ من كل حسن سره ، وفيه
جماعة يتأملون سقوفه ، ويتذاكرون وقوفه ، وأدام عجز الحديث
الى ذكر اللصوص وحيلهم والطاردين وعملهم ، فذكروا حيلاً
تجاوز السبعين حيلة ، فيها القبيح وفيها الطريف ، مما يدلنا على
انتشار اللصوصية وتفشي اللصوص في طرق السلب والسرقة
والاحتيال .

٤ - وآخر مظاهر فقر هذه الطبقة يقارب المظهر السابق
ويتشعب هو واياه من اصل واحد وذلك ان جماعة اتخذوا طريقة
في كسب العيش تقوم على التكدى والاستجداء بأساليب خاصة .
وستحدث عنهم في الفصل التالي من هذا الكتاب .

أهل الكدية أبطال المقامات

كانت من شدة فقر هذه الطبقة وكثرة الهائمين على وجوههم من أفرادها ان شاعت طريقة فريدة في دفع الجوع والتحايل على كسب العيش ، وذلك ان جماعة اتخذوا وسيلةهم في ذلك التسول والاستجداء عن طريق الأدب احياناً ، والنصب والاحتيايل احياناً أخرى ؛ ووجدت طائفة كبيرة من هذا القبيل متحدة في روحها وفي نزعتها ، وفي اساليب حياتها وفي انها رحلة دائمة الرحلة والمهاجرة ، وانها متحللة من كل مبدأ اخلاقي ، وقد اطلق على افراد هذه الطائفة اسم « أهل الكدية » او « الساسانيين » او « بني ساسان » .

وقد رووا في ساسان هذ أقوالاً وأساطير مختلفة ؛ فمن قائل انه ساسان بن اسفنديار ، كان من حديثه انه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم الى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك ، واشترى غنماً وجعل يرعاها ، وعير بانه راعي الغنم ، فقيل : ساسان الراعي ، وساسان الكردي ؛ ثم نسب اليه كل من تكدى او تسول فيقال : فلان من بني ساسان ، وقيل كان ساسان ملكاً من ملوك العجم حاربه داراملك الفرس ، ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملكه فصار رجلاً فقيراً يتردد في الاحياء ويستعطي فضرب به المثل . وقيل انه كان رجلاً فقيراً بصيراً في استعطاء الناس والاحتيايل

فنسبوا اليه .

وكان اهل الكدية هؤلاء طائفة يتجول أفرادها في البلاد يستجدون ويحتالون وكان عند بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس .. وعند بعضهم دهاء وحيل لا يتراز المال (١) وقد أصبحت حيلهم من الشهرة بحيث صارت من موضوعات العلم . فقد كتب حاجي خليفة فصلاً تحت عنوان : « علم الحيل الساسانية » قال فيه :

« هو علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب النافع وتحصيل الاموال . والذي يباشره يتزيا في كل بلدة بزي يناسب تلك البلدة بان يعتقد اهلها في اصحاب ذلك الزي . فتارة يختارون زي الوعاظ ، الى غير ذلك . ثم انهم يحتالون في خداع العوام بامور تعجز العقول عن ضبطها » (٢) .

وكان عندهم كلمات اصطلاحية تطلق على كل نوع من انواع الاحتيال التي تجيدها هذه الطائفة . وقد اوضح لنا الحريري هذه الحرفة في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية ، وذلك ان أبا زيد السروجي شعر بدنو أجله فأحضر ابنه وأوصاه بقوله :

« يا بني ! قد دنا ارتحالي من الفناء ، واكتحالي بمروءة الفناء ، وانت بحمد الله ولي عهدي وكبش الكتيبة الساسانية من بعدي .. فاحفظ وصيتي ، وجانب معصيتي .. يا بني ! إني جربت حقائق الامور ،

١ - ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ١٤٢

٢ - كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٤٥٥ - ٤٥٦

وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنسبه ، لا بنسبه ، والفحص
 عن مكسبه ، لا عن حـسبه ، وكنت سمعت ان المعاش إماره
 وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لانظر ايها
 اوفق وانفع ، فما احدثت منها معيشة ، ولا استرغدت فيها عيشة .
 اما فرص الولايات ، وخلص الامارات ، فكأضغاث الاحلام ،
 والفيء (١) المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام (٢) .
 واما بضائع التجارات ، فعرضه للمخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما
 اشبهها بالطيور الطيارات . واما اتخاذ الضياع ، والتصدي للزدرع ،
 فمنهكة للاعراض ، وقيود عاتقة عن الارتكاض ، وقلمها خلا ربها
 عن إذلال ، أورزق روح بال . واما حرف اولي الصناعات ، فقير
 فاضلة عن الاقوات ، ولا نافقة في جميع الاوقات ، ومعظمها معصوب
 بشبيبة الحياة (٣) ، ولم أر ماهو بارد المغنم ، لذيد المطعم ، وافي
 المكسب ، صافي المشرب ، الا الحرفة التي وضع ساسان أساسها ،
 ونوع اجناسها ، واضرم في الخافقين نارها ، واوضح لبني غبراء (٤)
 منارها... اذ كانت المتجر الذي لايبور ، والمنهل الذي لايفور ،
 والمصباح الذي يعشو اليه الجمهور ، ويستصبح به العمي والعور ،

١ - الفيء : الظل

٢ - من المثل القائل بأن الامارة حلوة الرضاع مرة الفطام

٣ - أي مرتبط بشباب الحياة فقط .

٤ - أي للفقراء والمحتاجين ، سوا ذلك لاستفراشهم وجه الغبراء ،

وهي الارض ، من غير غطاء ولا وطاء .

وكان اهلها أعز قبيل ، واسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمة لاسع ، ولا يدينون لدان ولا شاسع (١) ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد ، انديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة . . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون اوطاناً ، ولا يتقون سلطاناً . . فقال له ابنه : يا أبت لقد صدقت فيما نطقت ، ولكنك رتقت ومافتقت ، فبين لي كيف اقتطف ، ومن اين تؤكل الكتف ؟ فقال : يا بني : إن الارتكاض بابها ، والنشاط جلبابها ، والفطنة مصباحها ، والقحة سلاحها ، فكن أجول من قطرب (٢) ، واسرى من جندب (٣) ، وأنشط من ظي مقمر ، واسلط من ذئب متمر . . وانتجع كل روض ، وألق دلوك الى كل حوض ، ولا تسأم الطلب ، ولا تمل الدأب ، فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان : من طلب جلب ، ومن جال نال ؛ واياك والكسل ، فانه عنوان النحوس ، ولبوس ذوي البوس . . وما اشتار العسل ، من اختار الكسل ، ولا ملا الراحة ، من استوطأ الراحة ، وعليك بالاقدام ، ولو على الضرغام ، فان جرأة الجنان ، تنطق اللسان ، وتطلق العنان ، وبها تدرك

١ - الشاسع : البعيد

٢ - القطرب : دريئة تخرج من جحرها للرعي تجول الليل كله لاتنام ولا تستريح النهار .

٣ - الجندب : ضرب من الجراد .

الخطوة ، وتملك الثروة ، كما ان الخور صنو الكسل ، وسبب
 الفشل ، ومبطأة للعمل ، ومخية للأمل ، ولهذا قيل في المثل : من
 جسر أيسر ، ومن هاب خاب . ثم ابرز يابني في بكور ابي زاجر (١)
 وجراءة ابي الحارث (٢) . . وحرص ابي عقبة (٣) ،
 ونشاط ابي وثاب (٤) ، ومكر ابي الحصين ، وصبر ابي أيوب (٥) ،
 وتلف ابي غزوان (٦) ، وتلون ابي براقش (٧) ، وحيلة قصير ،
 ودهاء عمرو ، ولطف الشعبي ، واحتمال الاحنف ، وفطنة إياس ،
 ومجانة ابي نواس ، وطمع اشعب ، وعارضة ابي العيناء ، واخلب
 بصوغ اللسان ، واخدع بسحر البيان . . واشحذ بصيرتك للعيافة ،
 وأنعم نظرك للقيافة ، فان من صدق توسمه ، طال تبسمه ، ومن
 أخطأت فراسته ، ابطأت فريسته . . وعظم وقع الحقيير ، واشكر
 على النقيير (٨) ، ولا تقنط عند الرد ، ولا تستبعد رشح الصلد ،

-
- ١ - ابو زاجر : كنية الغراب .
 ٢ - ابو الحارث : كنية الاسد .
 ٣ - ابو عقبة : كنية الخنزير .
 ٤ - ابو وثاب : كنية الطيبي .
 ٥ - ابو ايوب : كنية الجمل .
 ٦ - ابو غزوان : كنية الهر ، ومن تلفه انه عاشر الناس وصار
 من جهلهم .
 ٧ - ابو براقش : كنية طائر يشبه القنفذ أعلى ريشه اغبر ، واوسطه
 أحمر ، وأسفله أسود اذا نفش ريشه تلون .
 ٨ - النقيير : النقرة في ظهر النواة .

ولا تيأس من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون؛
واذا خيرت بين ذرة منقودة ، وذرة موعودة ، فمل الى النقدة ،
وفضّل اليوم على الغد ، فان للتأخير آفات ، وللعزائم بدوات .. وعليك
بصبر أولي العزم ، ورفق ذوي الحزم ... ومـتى نبا بك بلد ،
او نابك فيه كمد ، فبت منه املك ، واسرح عنه جملك ، ولا
تستثقلن الرحلة ، ولا تكرهن النقلة ، فان اعلام شريعتنا ، واشياخ
عشيرتنا أجمعوا على ان الحركة بركة .. (١)

أخذت هذه الطائفة في الظهور والتميز في المجتمع منذ ايام
الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) . فقد ذكر البغدادى ان للجاحظ
كتاباً في « حيل المكدين » (٢) وهو من كتبه التي لم تصل الينا .
ولكن البيهقي احتفظ في كتابه « المحاسن والمساوي » بفصل طريف
من هذا العمل جاء فيه :

« قال الجاحظ : سمعت شيخاً من المكدين وقد التقى
بشاب منهم قريب العهد بالصناعة ، فسأله الشيخ عن حاله ، فقال :
لعن الله الكدية ولعن اصحابها من صناعة ماأخسها وأقلها وانها ،
ماعلمت ، تخلق الوجه وتضع من الرجال ، وهل رأيت مكدياً
أفلح ؟ قال : فرأيت الشيخ قد غضب والتفت اليه فقال : يا هذا ،
أقلل من الكلام فقد أكثرت ، مثلك لا يفلح لانك محروم ولم

١ - مقامات الحريري ، ص : ٥٦٩ - ٥٨٠

٢ - عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص : ١٠٦

تستحكم بعد ، وان للكدية رجالاً فمالك ولهذا الكلام ؟! ثم التفت
فقال : اسمعوا بالله ، يحيئنا كل نبطي قرنان ، وكل حائك صفعان ،
وكل ضراط كشحان ، يتكلم سبعاً في ثمان . اذا لم يصب احدهم
يوماً شيئاً ، ثلب الصناعة ووقع فيها ؛ او ما علمت ان الكدية صناعة
شريفة وهي محبة لذينة ، صاحبها في نعيم لا ينفذ ، فهو على يريد
الدنيا ومساحة الارض ، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق
والمغرب ، حيثما حل لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء ، ويأخذ
أطايب كل بلدة ، فهو أيام النرسيان والهيريون بالكوفة ، ووقت
الشبوط وقصب السكر بالبصرة ، ووقت البرني والازاد والرازي
والرمان المرمر ببغداد ، وأيام التين والجوز والرطب بمحوان ، ووقت
اللوز والسختيان والطبرزد بالجبل ، يأكل طيبات الارض ، فهو
رخي البال ، حسن الحال ، لا يغتم لأهل ولا مال ، ولا دار ولا
عقار ، حيثما حل فعلفه طيب ؛ أما والله لقد رأيتني وقد دخلت
بعض بلدان الجبل ووقفت في مسجد لها الأعظم وعلي فوطة قد اتزرت
بها وتعممت بجبل من ليف ، وييدي عكازة من خشب الدفلى ، وقد
اجتمع الي عالم من الناس كآني الحجاج بن يوسف على منبره ، وانا
اقول : يا قوم ! رجل من اهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصة
من ابناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله ، من ابناء الركاضة وحرس
الاسلام ، غزوت مع والدي اربع عشرة غزوة ، سبعاً في البحر ،
وسبعاً في البر ، وغزوت مع الأرمني ، قولوا : رحم الله أبا الحسن ،

ومع عمر بن عبيد الله ، قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع
البطال بن الحسين والرزداق بن مدرك وحمدان بن أبي قطيفة ؛ وآخر
ماغزوت مع يازمان الخادم ؛ ودخلت قسطنطينية وصليت في مسجد
مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا
أعرفه نفسي ، أنا ابن الغزير بن الركان المصيبي المعروف المشهور
في جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من أسداد
الاسلام ، نزل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذراري ، وسبي
النساء ، وأخذ لنا ابنان ، وحملنا الى بلاد الروم ، فخرجت هارباً
على وجهي ومعني كتب من التجار ، فقتل علي ، وقد استجرت
بالله ثم بكم ، فان رأيتم ان تردوا ركناً من اركان الاسلام الى وطنه
وبلده ؟ - فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت علي الدراهم من كل
جانب ، وانصرفت ومعني اكثر من مائة درهم . فوثب اليه الشاب
وقبّل رأسه وقال : انت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن اخوانك
خيراً (١) .

ولم يقتصر الجاحظ على هذا في تصوير هذه الطائفة ، بل
تناولها ايضاً في كتابه « البخلاء » في فصل خاص عنوانه « حديث
خالد بن يزيد » حيث أورد نادرة من نواذر بخل هذا الرجل كما
أورد وصيته لابنه عندما حضرته الوفاة . وهذه الوصية تعج بمصطلحات

١ - المحاسن والمساوي ، ج ٢ ، ص : ٢١٧ - ٢١٨ مطبعة السعادة ،

أهل الكدية التي شرح الجاحظ نفسه بعضها في آخر الفصل . ونحن
سنجتزئ هنا بعض هذا الفصل ونشرح في الحاشية ما يرد فيه من
اصطلاحات بالاستناد الى شروح الجاحظ والى شروح الاستاذ
الحاجري محقق كتاب « البخلاء » ، قال الجاحظ :

« وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة - هو خالويه المكدي -
وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها
احد . وكان ينزل في شق بني تميم ، فلم يعرفوه . فوقف عليه ذات
يوم سائل ، وهو في مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس
ليخرج فلساً - وفلوس البصرة كبار - فغلط بدرهم بغلي ، فلم يفطن
حتى وضعه في يد السائل . فلما فطن استرده ، وأعطاه الفلوس . فقيل
له : هذا لا نظنه يحل ، وهو بعد قبيح . قال : قبيح عند من ؟ اني لم
اجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ، ليس هذا من مساكين
الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس ، والله ما أعرفه الا بالفراصة .
« قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم
وأنا كنت كاجار (١) في حادثة سني ؟ ثم لم يبق في الارض

١ - كاجار : كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة ، من
المصدر التركي « قاجق » بمعنى الهرب ، وان هذه الكلمة ليست الا صورة من
كلمة « غجر » التي تطلق الآن على النور كاسم من اسمائهم الكثيرة .

مخطراني (١) ولا مستعرض (٢) إلا ففته ، ولا شحاذ ولا كاغاني (٣)
ولابانوان (٤) ولا قرسي (٥) ولا عواء (٦) ولا مشعب (٧)

١ - المخطراني : الذي يأتيك في زمني ناسك ، ويريك ان بابك الخرمي
قد قور لسانه من أصله ، لانه كان مؤذناً هناك . ثم يفتح فاه كما يصنع من
يتشاءب ، فلا ترى له لساناً ألبته ، ولسانه في الحقيقة كالسان الثور . ويقول
الجاحظ : وأنا احد من خدع بذلك . ولا بد للمخطراني ان يكون معه واحد
يعبر عنه ، او لوح او قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته .

٢ - المستعرض : الذي يعارضك وهو ذو هيئة ، وفي ثياب صالحة وكأنه
لقد مات من الجفاء ويخاف ان يراه من يعرفه .

٣ - الكاغاني : الذي يتجنى ويتصارع ويزبد حتى لا يشك انه مجنون
لادواء له لشدة ما ينزل بنفسه .

٤ - البانوان : الذي يقف على الباب ويسل الغلق ويقول : بانوا .
وتفسير ذلك بالعربية : يامولاي .

٥ - القرسي : الذي يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ويبت على ذاك
ليلة ، فاذا تورم واختنق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين ، وقطر
عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه
ان به الأكلة ، او بلية شبه الأكلة .

٦ - العواء : الذي يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما طرب ، ان كان
له صوت حسن وحلق شجي .

٧ - المشعب : الذي يحتمل للصبي حين يولد بان يعميه او يعطل احد
اعضائه ليسأل اهله به الناس . وربما جاءت به امه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم
الثقيل ، لانه يصير حينئذ عقدة وغلة . فاما ان يكتسبها به واما ان يكرهاه
بكرهه معلوم ، وربما اكروا اولادهم ممن يمضي الى افريقية ، فيسأل بهم
الطريق أجمع بالمال العظيم . فان كان ثقة مليئاً ، والا أقام بالاولاد والاجرة
كفياً .

ولا فلور (١) ولا مزيدي (٢) ولا إسـطـيل (٣) الا وقد
كان تحت يدي . ولقد أكلت الزكوري (٤) ثلاثين سنة . ولم يبق
في الارض كني (٥) ولا مكـد الا وقد اخذت العرافة عليه ...
وانما أراد بهذا ان يؤنسهم من ماله ، حين عرف حرصهم وجشعهم
وسوء جوارهم ؛ وكان قاصاً متكلماً بليغاً داهياً ، وكان ابو سليمان
الأعور وأبو سعيد المدائني القاصان من غلمانه ، وهو الذي قال لابنه
عند موته :

« اني قد تركت لك ماتاً كله ان حفظته ، ومالاً تأكله ان
ضيعته . ولما ورثتك من العرف الصالح ، وأشهدتك من صواب
التدبير ، وعودتك من عيش المقتصدین ، خير لك من هذا المال .
ولو دفعت اليك آلة لحفظ المال عليك بكل حيلة ، ثم لم يكن لك

١ - الفلور : الذي يحتمل لخصيته حتى يريك ان بها مرطناً او خراجاً
او غيره . او ربما ارى ذلك في دبره بان يدخل فيه حلقوماً ببعض الرئة . وربما
فعلت ذلك المرأة بفرجها .

٢ - المزيدي : الذي يدور ومعه الدرهمات ويقول : هذه دراهم قد
جمعت لي في ثمن قطيفة ، فزيدوني فيها رحمكم الله ، وربما احتمل صبيّاً على انـه
لقيط ، وربما طلب في الكفن .

٣ - الإسـطـيل : هو المتعامي ، ان شاء اراك انه منخفض العينين ، وان
شاء اراك ان بها ماء ، وان شاء اراك انه لا يبصر .

٤ - الزكوري : هو خبز الصدقة ، كان على سجين او على سائل .

٥ - الكعبي : نسبة الى النبي بن كعب الموصلي ، وكان عريفاً من

عرفائهم .

معين من نفسك ، لما انتفعت بشيء من ذلك ؛ بل يعود ذلك النهي
كله اغراء لك ، وذلك المنع تهجيناً لطاعتك .

« قد بلغت في البر منقطع التراب ، وفي البحر اقصى مبلغ
السفن . فلا عليك ألا ترى ذا القرنين ... ولأنا اهدى من القطا
ومن دميميص (١) ومن رافع الخش (٢) . اني قد بت بالقفر مع
الغول ، وتزوجت السعلاة ، وجاوبت الهاقف ، ورغت عن الجن
الى الحن ، واصطدت الشق ، وجاوبت النسناس . . وعرفت خدع
الكاهن وتدسيس العراف ، والى ما يذهب الخطاطو العياف (٣)
وما يقول اصحاب الاكتاف (٤) ، وعرفت التنجيم والزجر والطرق
والفكر .

« إن هذا المال لم اجمعه الا من القصص والتكديّة ، ومن

١ - دميميص : ذكره الميداني في شرح المثل : « ادل من دميميص
الرمل » فقال : « هو اسم رجل كان دليلاً خريّتاً داهياً يضرب به المثل ؛ فيقال :
هو دميميص هذا الامر ، أي عالم به » .

٢ - رافع الخش : هو رافع بن عمير الطائي ، وكان دليلاً خريّتاً في
زمان عمر بن الخطاب ، ومن أشهر ما يعرف به انه دل خالد بن الوليد حين خرج الى
الشام والياً عليها مكان ابي عبيده بن الجراح ، ففرز به بين قراقر وسوى .
ولعل هذا الحادث كان من اكبر ما خلد ذكر هذا الرجل .

٣ - الخط والعيافة والطرق والفكر : أنواع من الفراسة والعرافة والتنجيم .

٤ - اصحاب الاكتاف : طائفة من اهل الفراسة ، يصطنعون في ذلك
النظر في الاكتاف ، كما يصطنع غيرهم النظر في أسرار الكف وهي خطوطها .

احتياال النهار ومكابدة الليل (١) . ولا يجمع مثله ابداً الا من معاناة
ركوب البحر (٢) ، او من عمل سلطان ، او من كيمياء الذهب
والفضة . قد عرفت الرأس (٣) حق معرفته وفهمته سر (٤)
الا كسير على حقيقته . ولولا علمي بضيق صدرك ، ولولا ان اكون
سبباً لتلف نفسك ، لعلمتك الساعة الشيء الذي بلغ به قارون ، وبه
تبنتك خاتون (٥) . والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديق ، فكيف

١ - مكابدة الليل : أي المراقبة في الليل .

٢ - يقصد التجارة .

٣ - الرأس : نجد في فهرست ابن النديم في الفصل الذي عقده لوصف
مذاهب الخرافة الكلدانية قصة عجيبة وضعها تحت هذا العنوان : « حكاية في
الرأس » ، قال :

« انه رأس انسان صورته عطاردية ، على ما يعتقدونه في صور
الكواكب . يؤخذ ذلك الانسان اذا وجد على الصورة التي يزعمون انها
عطاردية ، بحيلة وغيلة ، فيفعل به أشياء كثيرة ، منها : يقعد في الزيت والبورق
مدة طويلة حتى تسترخي مفاصله ، وتصير في حال اذا جذب رأسه انجذب من غير
ذبح فيما أرى (ولذلك يقال : فلان في الزيت ، مثل قديم . هذا اذا كان في
شدة) . يفعلون ذلك كل سنة اذا كان عطارد في شرفه ، ويزعمون ان نفس
ذلك الانسان تتردد من عطارد الى هذا الرأس ، وينطق على لسانه ويخبر بما
حدث ، ويجب عما يسأل عنه ، لانهم يزعمون ان طبيعة الانسان أليق وأشبه
بطبيعة عطارد من سائر الحيوان ، وأقرب اليه بالنطق والتمييز وغير ذلك مما
يمتقدونه فيه » .

٤ - في الاصل : كسر

٥ - تبنتك به : أقام ، وفي عزه : تمكن . وغالب الظن انه يقصد
بخاتون ، خاتون ملكة بخاري حتى سنة ثلاث وخمسين هجرية .

مالاً يحتمله عزم ولا يتسع له صدر . وخزن سر الحديث وحبس
كنوز الجواهر ، أهون من خزن العلم . ولو كنت عندي مأموناً
على نفسك لأجريت الأرواح في الأجساد ، وانت تبصر . ادكنت
لا تفهمه بالوصف ولا تحقه بالذكر . ولكني سألقي عليك علم الإدراك ،
وسبك الرخام ، وصنعة الفسيفساء ، وأسرار السيوف القلعية (١) ،
وعقاقير السيوف اليمانية ، وعمل الفرعوني (٢) ، وصنعة التلطيف (٣)
على وجهه ، ان اقامني الله من صرعتي هذه .

« ولست ارضاك وان كنت فوق البنين ، ولا اثق بك
وان كنت لاحقاً بالاباء ، لاني لم أبالغ في محنتك . اني قد لا بست
السلطين والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمكدين ، وخالطت
النسك والفتاك ، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر ،
وحلبت الدهر اشطره ، وصادفت دهرأ كثير الاعاجيب . فلو لا اني
دخلت من كل باب ، وجريت مع كل ربح ، وعرفت السراء
والضراء ، حتى مثلت لي التجارب عواقب الامور ، وقربتني من
غوامض التدبير ، لما امكنتي جمع ما خلفه لك ، ولا حفظ ما حبسته
عليك . ولم احمد نفسي على جمعه ، كما حمدتها على حفظه ، لان بعض

١ - السيوف القلعية : يعدها الجاحظ من مفاخر الهند ، وهم ألب الناس
بها ، وأحذقهم ضرباً بها . والسيوف القلعية ، سيوف هندية قديمة ، وكانت
صنائعها - فيما يظهر - سرأ من الاسرار التي يفخر خالد بن يزيد بمعرفتها .

٢ - الفرعوني : نوع خاص من الزجاج يحتاج في صنعه الى معرفة خاصة .

٣ - صنعة التلطيف : نوع من التبخير او التصعيد .

هذا المال لم أنه بالحزم والكيس . قد حفظته عليك من فتنة البناء ،
ومن فتنة النساء ، ومن فتنة الثناء ، ومن فتنة الرياء ، ومن ايدي
الوكلاء فانهم الداء العياء ...

« يا ابن الخبيثة ، انك وان كنت فوق ابناء هذا الزمان ، فان
الكفاية قد مسختك ، ومعرفتك بكثرة ما خلف قد افسدتك . وزاد
في ذلك ان كنت بكري وعجزة امك .

« أنا لو ذهب مالي لجلست قاصداً ، او طفت في الآفاق - كما
كنت - مكدياً ، اللحية وافرة بيضاء ، والحلق جهير طل (١) ،
والسمت حسن ، والقبول علي واقع . ان سألت عيني الدمع أجابت
- والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير - وصرت محتالاً
بالنهار ، واستعملت صناعة الليل ، او خرجت قاطع طريق ، او صرت
للقوم عيناً ولهم مجمراً . سل غني صعاليك الجبل وزوا قيل الشام (٢)

١ - الطل : الحسن المعجب .

٢ - صعاليك الجبل : يطلق اسم الجبل او الجبال على المنطقة الجبلية التي
قصبتهما همدان ، وهي المنطقة الواقعة بين العراق غرباً وصحراء ايران الكبرى
شرقاً وبين أذربيجان في الشمال والاهواز وفارس في الجنوب . اما فيما يتعلق
بصعاليك الجبل فلعل الجاحظ يقصد بهم ما ذكرناه سابقاً - نقلاً عن البلاذري -
عن الصعاليك والذعار الذين كانوا في منطقة سيمر . اما زوا قيل الشام : فهم
الاصوص او النور ، ويبدو انه الاسم الذي كان يطلق على هذه الطائفة في
الشام ، كما كان يطلق عليهم اسم الزط في البصرة وما حولها .

وزط الآجام ورؤوس الا كراد ومردة الاعراب وفتاك نهر بط (١)
 ولصوص القفص (٢) وسل غني القيقانية (٣) والقطرية (٤)، وسل
 غني المتشبهة وذباحي الجزيرة : كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف
 حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة ، وكيف ثبات جناني
 عند رؤية الطليعة ، وكيف يقظتي اذا كنت ريثة (٥)، وكيف كلامي
 عند السلطان اذا أخذت ، وكيف صبري اذا جلدت ، وكيف قلة
 ضجري اذا حبست ، وكيف رسفاني في القيد اذا أثقلت . فكم من
 ديماس (٦) قد نقبته ، وكم من مطبق (٧) قد أفضيته ، وكم من

-
- ١ - نهر بط : نهر بالاهواز وهي بين البصرة وفارس .
 - ٢ - القفص : كلمة تطلق على جبل في كرمان ، ثم أطلقت على أهل
 ذلك الجبل ، وهم طائفة من الناس يسلكون مع الزط ومن اليهم في نظام واحد ،
 وهم معروفون بشراستهم وقسوة طباعهم .
 - ٣ - القيقانية : لصوص قيقان ، وهي من بلاد السند مما يلي خراسان ،
 وصفها حكيم بن جبلة العبدى ، فنوه في وصفه بلصوصها اذ يقول : « ماؤها
 وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل » .
 - ٤ - القطرية : نسبة الى قطر ، في أراض البحرين ، ومن المحتمل ان
 يكون هؤلاء القطرية قراصنة .
 - ٥ - الريثة : الطليعة والرقب والحارس .
 - ٦ - الديماس : الكن والسرب وسجن للحجاج بن يوسف بواسط ،
 سمي بهذا الاسم لظلمته .
 - ٣ المطبق : هو سجن العباسيين ببغداد ، ولعله يقصد بالديماس والمطبق
 كل سجن .

سجن قد كابدته . لم تشهدني و كرددويه الأقطع ايام سندان (١) ولا
شهدتني في فتنة سرنديب ، ولا رأيتني ايام حرب المولتان (٢) ، سل
عني الكتيفية والخليدية والخرّية والبلالية (٣) وبقية اصحاب صخر
ومُصخير ، وبقية اصحاب فاس وراس ومقلاس ، ومن لقي أزهر أبا
النقم . كان آخر من صادفني حمدويه ابو الأرطال . وأنا مجيب
مردويه بن ابي فاطمة ، وأنا خلعت بني هاني .. (٤) ، وما كان النقّاب
الاهدأما حتى نشأت ، وما كان الاستقفاء الا استلاباً حتى بلغت .

« وأنت غلام ، لسانك فوق عقلك ، وذكاؤك فوق حزمك ،
لم تعجمك الضراء ، ولم تزل في السّراء ، والمال واسع ، وذرعك
ضيق . وليس شيء أخوف عليك عندي من حسن الظن بالناس ،
فاتهم شماك على يمينك ، وسمعك على بصرك ، وخف عباد الله على
حسب ما ترجو الله ..

« ومات من ساعته ، وكفنه ابنه ببعض خلقانه ، وغسله

١ - سندان : مدينة ملاصقة لبلاد السند .

٢ - المولتان : بلد في الهند ، على سمت غزنة ، وبها صنم تعظمه الهند
وتحج اليه من أقصى بلدانها . اما حرب المولتان ، فاعله يقصد بها حروب والي
السند عمران بن موسى في خلافة المعتصم .

٣ - جماعات من الغوغاء الذين يبرزون في المدن وقت الفتن ، على نحو
ما حدث في فتنة الامين والمأمون ، في بغداد ، مما وصفه الطبري وصفاً ممتعاً .

٤ - اسماء جماعة من كبار اللصوص وقطاع الطرق والصعاليك والفتاك .

بماء البئر ، ودفنه من غير ان يضرح له ، او يلحدله ورجع .. (١) .
 واشتهر من بني ساسان في القرن الرابع شعراء كبار هم :
 الأحنف العكبري وابو المكارم المطهر بن محمد البصري وابودلف
 الخزرجي . فالأحنف العكبري كان آدب بني ساسان ببغداد ، يقول
 فيه الثعالبي : « شاعر المكدين وظريفهم ، ومليح الجملة والتفصيل
 منهم .. وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة
 في الشعر .. ولا أقل من اراد موضع افتخاره فانه يقول - في
 الحرفة الساسانية - :

على اني بمحمد الـ	ه في بيت من المجد
باخواني بني ساسا	ن أهل الجيد والجيد
لهم أرض خراسان	فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج	الى البلغار والسند
اذا ماعوز الطرق	على الطراق والجند
حذاراً من أعاديهم	من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج	بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديـه	بنا في الزوع يستعدي

« ولهذا البيت الأخير معنى بديع وتفسيره : ان ذوي
 الثروة واهل الفضل والمروءة اذا وقع احدهم في ايدي قطاع
 الطريق واحب التخلص قال : انا مكدي - فيخلون سبيله .. وقل :

١ - الجاحظ : البخلاء ، ص : ٣٩ - ٣٠ ، طبعة دار الكاتب المصري .

العنكبوت بنت بيتاً على وهن
تأوي اليه ومالي مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن
وليس لي مثلهما إلف ولا سكن
» وقال :

قد قسم الله رزقي في البلاد فما
يكاد يدرك إلا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقاً بفلسفة
ولا بشعر ولكن بالبخاريق
والناس قد علموا اني أخو حيل
فلست أنفق إلا في الرساتيق « (١)
أما المطهر البصري فهو « أحد من طوف في الآفاق ولا
راحلة له الا الرحلة ، ولا حرفة الا شحذ المذبة في الجدبة ، وهو
شاعر سريع الخاطر كثير النوادر في الجد والهزل وهو القائل :
رأيت الشعر للسادات عزاً ومنقبة وصيتاً وارتفاعا
وللشعراء هوناً وانخفاضاً ومجلبة لذل واتضاعاً « (٢)
وأما أبو دلف الخزرجي ، مسعر بن مهلهل ، فانه « شاعر
كثير الملح والظرف ، مشحوذ المذبة في الجدبة ، خنق التسعين في

١ - ينيمة الدهر ، ج ٣ ، ص : ١١٧ - ١١٩

٢ - الثعالبى : تنمة الينيمة ، ج : ١ ، ص : ١٨

الاطراب والاعتراب، وركوب الاسفار الصعاب... وكان ينتاب
 حضرة الصاحب (١)، ويكثر المقام عنده، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته،
 ويرتفق بخدمته، ويرتزق في جملة، ويتزود كتبه في اسفاره، فتجري
 مجرى السفاتج في قضاء اوطاره، وكان الصاحب يحفظ مناة (٢)
 بني ساسان حفظاً عجيباً، ويعجبه من ابي دلف وفور حظه منها.
 وكانا يتجاذبان اهدابها ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما، ولما اتحفه
 ابو دلف بقصيدته التي عارض بها دالية الاحنف العكبري في المناكة
 وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وانواع رسومهم وتنادر
 بادخال الخليفة المطيع لله في جملةهم وقد فسر لها تفسيراً شافياً كافياً،
 اهتز ونشط لها وتبجح بها وتحفظ كلها واجزل صلتها عليها.. (٣)
 وهي قصيدة رائية طويلة اورد الثعالي معظمها عند ترجمته لأبي دلف
 في الجزء الثالث من يتيمة، وهي تعتبر في الحقيقة دستور بني ساسان
 لأنها تحتوي على ألفاظهم الاصطلاحية وعلى الكثير من انواع حيلهم
 وطرق ابتزازهم اموال الناس. وسند ذكر هنا بعضاً منها مع شروح
 الثعالي وتعليقاته عليه لنتبين بوضوح معالم هذه الفئة من الناس
 واعمالها. ومطلع هذه القصيدة:

جفون دمعها يجري لطول الصد والهجر

١ - الصاحب بن عباد، وزير البويهيين في الري.

٢ - أي كلامهم الذي يتكدون به من مصطلحات خاصة.

٣ - الثعالي: يتيمة الدهر، ج: ٣، ص: ٣٥٢ - ٣٥٣

ومنها :

على أني من القوم البهايل بني الغر
بني ساسان والحامي الحمي في سالف العصر
تغربنا الى أننا تناءينا الى شـهر
فظل البين يرمينا نوى بطناً الى ظهر
كما قد تفعل الريح بكشب الرمل في البر
فنحن الناس كل الناس في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين الى مصر (١)
الى طنجة بل في كل أرض خيلنا تسري
اذا ضاق بنا قطر نزل عنه الى قطر
لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر
فنحن الميزقانيو نلاندفع عن كبر (٢)
هم شقي فسلمني عنهم ينبيك ذو خـبر
فمنا كل صلاح بكيد وافر نكر
الصلاح : الذي يصلح ، أي مجلد عمـيرة .

قد استكفي بكفيه عن الثيب والبكر
فلا يخشى من الاثم ولا يؤخذ بالمهر
ولا يحذر من حيض ولا حمل على طهر

١ - انه يعتبر ما يستجدونه من الناس جزية يأخذونها منهم .
٢ - الميزقانيون : هم اصحاب الكدية ، وميزق : كدى

ومنا الكاغ والكاغة والشيشق في النحر
الكاغ والكاغة : المتجانن والمتجاننة . والشيشق : الحدائد
والتعاويد التي يلقونها على أنفسهم .

وأشكالٌ وأغلالٌ من الجلد أو الصفر
ومن دروز أو حرز أو كوز بالدغر . . .
دروز : إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء .
حرز : إذا كتب التعاويد والاحراز . كوز : إذا أقام بالمجلس ،
والمكوز : هو الذي يقوم في مجالس القصاص فيأمر القاص أصحابه
بإعطائه ، ثم إذا تفرقوا تقاسما ما أعطوه . والدغر : المقاسمة .

ومن رعس أو كبس أو غلس في الفجر
رعس : إذا طاف على جوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة
ومن هنا تمرّة وتينة . كبس : إذا دار فإذا نظر إلى رجل قد حل
سفتجته كبسه وأخذ منه قطعة . غلس : إذا خرج إلى الكدية
بغلس .

وحاجور وكذابا تأهل الأوجه الصفر
الحاجور : الذي يثقب بيضة ويجعلها في حجره وهي تسيل
ماءً أصفر . الكذابات : العصابات يشدونها على جباههم فيوهمون
أنهم مرضى .

ومن ميسر أو مخطر واستنفر للثغر

ميسر : اذا كدى على انه من الثغر ، ويقال له الميسراني .
مخطر : اذا بلع لسانه وأوهم ان الروم قطعوه .
ومن ناكذ في القينو ن من جوف ابي شمر
المنا كذة : ان يتقاسموا ما يأخذونه من الثياب والسلاح بعة
الغزو . والقينون : موضع القسمة . ابو شمر : أول من كدى
بعة الغزاة .

ومن دكك أو فكك أو بلغك بالحر
المدكك : الذي يحتال على من به وجع الضرس حتى يجعل
دود الجبن فيما بين اسنانه ثم يخرج به ويوهم انه أخرجه بالرقية .
فكك : اذا فك السلاسل على الطرق . بلغك : اذا جر الخواتيم
بالا برسم الرقيق .

ومن بشرك أو نوذك أو أشرك باللهبر
بشرك : تزيأ بزي الرهبان تزهداً . نوذك : اذا كدى على
انه من الحجاج . أشرك باللهبر : اذا قاسم شركاءه ما يأخذونه .

ومننا المصطبانيو ن من ميزق بالأسر
المصطبانيون : قوم يزعمون انهم خرجوا من الروم وتركوا
أهاليهم رهائن عندهم ، فطافوا البلاد ليجمعوا ما يفكونهم به ، وتكون
معهم شعورهم ويقال لذلك الشعر المصطبان .

ومننا كل مطراش من المكلوذة البُسُتر

المطراش : الذي معه يده يكدي عليها ، ويقال لليد المقطوعة :
المكلوذة .

ومن يزئق أو يخنق أو يذلُق بالذبر
زئق : يشق في بدنه ثقبه وينفخ فيها حتى يتورم بدنه .
يخنق : يضع المنديل في رقبة نفسه ويقتله حتى ينتفخ رأسه ووجهه .
يذلُق : يمشي عريان الأست .

ومن شدد في القول ومن رمى في القصر
ومن شدد : قوم يكون معهم دفاتر حديث يروونها ويشددون
على الناس في اللواط وشرب الخمر . القصر : هو الأتون يدخله
الواحد من القوم فيطرح نفسه في الرماد ثم يخرج وعليه غبرة الرماد
ويومئذ أنه أوى إليه من شدة البرد وعدم الملبوس .

ومن يزرع في الهادو ر تكسيحاً من البذر
الى ان يقع التنبل في محصدة الجزر
من يزرع في الهادور : قوم ينظرون في الفال والزجر
والنجوم ويعطون قوماً دراهم حتى يأتوهم ويسألوهم عن نجمهم وعمّاهم
فيه ، فينظرون لهم ثم يردون الدراهم عليهم قائلين : لانأخذها لان
لان نجمك ما خرج كما تريده . الهادور : كلام الحلقة التي يجتمع الناس
عليها . والتكسيح : المانة . التنبل : هو الأبله الذي يقبل الخاريق
على نفسه ويفتر بما يورد المنجم عليه ، فيخرج هو ايضاً دراهمه
طمعاً في ردها ، فيأخذها المنجم منه ويسخر به .

ومنا منفذ الطين وأصحاب اللحى الحمر
منفذ الطين : قوم يخضبون لحاهم بالحناء ، ويدعون أنهم
شيعة ويحملون السبع والألواح من الطين ويؤمنون أنها من قبر
الحسين بن علي رضي الله عنها فيتحفون بها الشيعة .

ومن شقف بالماء ومن شقف بالجمر
المشقف : هو الذي يأخذ ماء النوشادر فيكتب به الرقاع
ويتركها بين يديه فإذا مر به الأبله قال له جرب بختك وخذ رقعة
من هذه ، فيأخذها ثم يعطيه إياها فيقذفها في النار فيظهر المكتوب
أسود ، وقد يعمل هذا الجنس بماء العفص فإذا غمس في ماء الزاج
خرج أسود ، ويقال للرقعة : الشقيقة .

ومنا النائح المبكي ومنا المنشد المطري
النائح المبكي : قوم ينوحون على الحسين بن علي ويروون
الأشعار في فضائله ومراثيه .

ومن ضرب في حب علي وأبي بكر
قوم يحضرون الأسواق فيقف واحد جانباً ويروي فضائل
أبي بكر رضي الله عنه ، ويقف الآخر جانباً ويروي فضائل علي
رضي الله عنه ، فلا يفوتها درهم الناصبي والشيعة ، ثم يتقاسمان
الدراهم .

ومن قرمط أو سرمط أو خطط في سفر
قرمط : أي كتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط .

وسرط : كتب . والسرماط : الكتاب .

ومن دهشم بالكرش ويستبرد في النهر
ومن دهشم : مخرقا وموه بانه صائم . والكرش : الصوم
والجوع ايضا . ويكون قد أكل في منزله فاذا عطش نزل في النهر
بعلة الاستبراد وشرب ماأراد .

ومنا الشيخ هفصويه ويحي وأبو زكر
هفصويه وهؤلاء الذين سماهم : قوم نبط وعجم ، يكدون
ولا يتكلمون بالعربية .

ومن كان على رأي ابن سيرين من العبّر
من كان على رأي ابن سيرين : هؤلاء من البصرياء يعبرون
الرؤيا ويكدون من هذه الجهة .

ومنا قافة الرزق وأهل الفال والزجر
ومن يعمل بالزيج وبالتنور والجفر
ومنا البشتداريون ن تحت الرحل كالجر
البشتداريون : قوم يستأجرهم المكدون الذين يخرجون الى
القرى فيحملون رحالاتهم وما يجمعون بها من الحب والصوف وغيره .

ومنا كل مراس جسور جاهل هزر
يرى الخش فيأتيه بلا خوف ولا ذعر
فيستل الذي يخشا ه من شصوصه الخزر
ويبقى منه ما يصلح للمحنة والسبر

فهذا هالك لسعاً وهذا كفه يبري
المراس : الحواء معه سلال فيها حيات . الخش : الافرعي .
الشصوص : الانياب يقلعها ويترك واحدة .

ومنا كل إسطيل نقي الذهن والفكر
ومنا كل سباع عظيم الليث والبر
ومن قرذ او دبب من كل فتى غمر
الاسطيل : الأعمى . ومن قرد او دبب : هم الذين يكدون
على الدية والسباع والقردة .

وسنان وسنان ومن قتت كالكب
والسمان : الذي يعطي النساء دواء السمن . والسنان : الذي
يعطي دواء الاسنان . وقتت : أكل القت بين ايدي الناس كالجمل .
ومنا شعراء الارض أهل البدو والحضر (١)
ومناقيم الدين المطيع الشائع الذكر
يكدي من معز الدولة الخبز على قدر (٢)
ومطلي دم الأخ مع المصموغ كالبر
ومطلي دم الأخ : هم الذين يضربون دم الاخوين والكثيراء

١ - جعل الشعراء كلهم من اهل الكدية لانهم يتكسبون بشعرهم .
٢ - تنادى ابو داف هنا بادخال الخليفة المطيع لله في جملة بني ساسان استجلاباً
منه لرضا صاحب بن عباد وزير البويهيين اذ صوروه كمن يستجدي الخبز على قدر
من معز الدولة البويهى .

والصموغ وينفخونها على اجسادهم فييدون وكأن بهم بشوراً
فيكدون .

ومنا سبعة الريح لضرب الكلب والهـر
وسعة الريح : قوم يرعدون رعدة شديدة تهتز لها
مفاصلهم وتصطك اسنانهم ، ويقول احدهم : انه قتل سنوراً او
كلباً فلطمته الجن .

ومن يمشي على الجبل ومن يصعد بالبكر (١)
ومنا الزنج والزط سوى الكباجة السمر
الكباجة : اللصوص ، كبحج : اذا سرق .

ومنا كل ذي سم خشوع القن كالخبـر
يرقي وتراه با كياً دمعته تجري
ومن صاح بآمين من المـزلق والذعر
فذا بقالنا سطل وذا استاذنا خرري
وذا قصابنا عسّم وذا البراز لا تبـري

من المزلق : يريد هؤلاء العراة ، الواحد مزلق ، يصيحون
بآمين في الاسواق . فاذا لم يعطهم اصحاب الحوانيت شيئاً صاحوا
بآمين ودعوا عليهم بذا بقا لنا سطل : أي اعمه يارب ، وعسّم : من
العسوم وهو المفلوج .

ومنا من تمشي يمسح البلدان كالنسر

١ .. يفعل ذلك للسرقة .

وأصحاب التجافيف من الثامولة الصبر
أصحاب التجافيف : قوم يأوون المساجد عليهم مرقعات
كالتجافيف بعضها مركبة فوق بعض ، ويقال لهم الثامولة الصبر :
لصبرهم على شدة فقرهم .

وأصحاب الشقاات من المشاطح العكس
بنو التضريب واليـدرب والتفتيق والأطـر
ترى للقمل في كل شقاع مائي وكـر
خلنجيون محاضوا ولا باتوا على طهر
الشقاات : جمع شقاع ، وهو الوطاء اذا كان من ألوان
اولون واحد يكون مع جنس منهم ، فيدورون في المواضع ويسطون
الشقاع ويصلون عليها ولا يأوون الى موضع فلهذا يقال لهم : المشاطح ،
لان المشاطح هو الذي يطوف دائماً لا يفتر . وبنو التضريب : قوم
ليس لهم عمل الا جمع الخرق معهم فهم ابدأ في رتق اوفتق .
والخلنجي : الذي يخزي ولا يغسل استه . محاضوا : أي ماتطهروا .

ألا إني حلبت الدهر من شطر الى شطر
وجبت الارض حتى صر
وللغربة في الحر
وما عيش الفتى إلا
فبعض منه للخير
فان أظفر بآماله
ت في التطواف كالخضر
فعال النار في التبر
كحال المد والجزر
وبعض منه للشر
شفيت غلة الصدر

وإما تكن الأخرى وعز جاز الكسر
 فلا أبت مع السفر غداة أوبة السفر
 ولا عدت متى عدت بلا عز ولا وفر
 وحسي القصب المطحو ن فيه ورق السدر
 وأثواب تواريني من الأيذاء والأزر (١)

قال الثعالبي : وأنشدني بديع الزمان لابي دلف ، ونسبه في
 بعض المقامات الى ابي الفتح الاسكندري (٢):

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
 زور ومخرق وكل وأطبق واسرق وطلبق لمن يزور
 لا تلزم حالة والكن در بالليالي كما تدور (٣)

وقد وصلت الحكاية التالية عن بعض المتأخرين نقلها آدم
 متر عن مخطوطة كتاب « كشف الاسرار » للجويري الموجودة في
 مكتبة فينيا (ص : ٢٥) :

« رأيت بحرآن سنة ثلاثة عشر وستمئة رجلاً من بني
 ساسان ، قد اخذ قرداً علمه السلام على الناس ، والتسبيح والسواك
 والبكاء ، ثم رأيت لهذا القرد من الناموس مالا يقدر عليه احد ؛
 فاذا كان يوم الجمعة أرسل عبداً هندياً حسن الوجه نظيف الملبوس

١ - الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج : ٣ ، ص : ٣٥٤ - ٣٧٣

٢ - المقامة الاولى « القرىضية » .

٣ - يتيمة الدهر : ج ٣ ، ص : ٣٥٤

الى الجامع ، فيبسط عند المحراب سجادة حسنة ؛ فاذا كان في
الساعة الرابعة لبس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك ،
وجعل في وسطه خياصة لها قيمة ، ثم طيَّبَه ، ثم أركبه بغلة عمر كوب
مذهب محلى ، ثم مشى في ركابه ثلاثة عبيد هنود بأخضر ملبوس ،
الواحد يحمل الوطا ، والآخر يحمل الشرموذة ، والآخر يطرق
قدامه ، وهو يسلم على الناس ؛ وكل من سأل عنه ، يقول : هذا ابن
الملك الفلاني من اكبر ملوك الهند ، وهو مسحور ، فلا يزال حتى
يدخل الجامع فيفرش له الوطا فوق السجادة ، ويحيط له سبحة
ومسواكاً ، فيقلع القرد منديله من الحياصة ، ويضعه بين يديه ،
ويستاك بالمسواك ، ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يأخذ السبحة
ويسبح ، فاذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه فسلم على الناس
وقال : يا أصحابنا ! من أصبح معافى فان الله عليه نعمة لا تحصى ، واعلموا
ان هذا القرد الذي ترونه بينكم ، والله لم يكن في زمانه أحسن
شباباً منه ، ولا أطوع لله تعالى منه . ولكن المؤمن ملقى لقضاء
الله ، وكان من القضاء المدبّر ان زوجة والده ابنة الملك الفلاني ،
فأقام معها مدة ، ثم قالوا لها انه قد عشق مملوكاً له ، فأدركتها
الغيرة وطلبت دستوراً لها في زيارة أهلها ، فأذن لها في ذلك وجعلها
بما تحتاج اليه ، فلما حصلت عند أهلها سحرته كما ترون ، فلما رأى
والده ذلك قال : هذا اختلّف به عند الملوك ، فأمر باخراجه من

ذلك الاقليم ، فأخرج . وقد سألناها بجميع الملوك (١) فادعت انها خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة الف دينار ، وقد تخلف عليه عشرة آلاف ، من يساعده بشيء من ذلك ؟ فارحموا هذا الشاب الذي عدم الاهل والملك والوطن ، فأخرج من صورته الى هذه الصورة ، فعند ذلك يجعل القرد المندبل على وجهه ويبكي ، فترق قلوب الناس لذلك ويرفده كل احد بما يسر الله ، فما يخرج من الجامع الا بشيء كثير ، وهو يدور به البلاد على هذه الصفة ، (٢)

وقد نلخص الحريري فلسفة هذه الطائفة بما أوروده على لسان ابي زيد السروجي في آخر المقامة الحرامية :

عش بالخـداع فأنت في دهر بنوه كأسد ييشة
وأدر قنـاة المـكر حتى تستدير رخي المعيشة
وصد النـسور فان تعذ ر صيدها فاقنع بريشة
واجن الثـمار فان تفتك فرض نفسك بالحشيشة
وأرح فؤادك ان نبا دهر من الفكر المطيشة
فتغـاير الـاحداث يؤ ذن باستحالة كل عيشة

ولا بد ان صفات هذه الجماعة وطبائعها ومعالمها وطريقة حياتها قد وضحت من خلال ما اوردناه . وقد كثر افرادها في القرن الرابع الهجري كثرة بالغة واشتهرت حيلها واعمالها عند

١ - اي سألوها ان تفك السحر عنه .

٢ - آدم متر ، ج ٢ ، ص ١٠٠٠ - ١٠٢

الناس جميعاً ، و بقيت منهم بقايا في القرون التالية . وإن ظهور
هذه الطائفة هو الذي حدا بيدع الزمان الهمداني الى تأليف
مقاماته . ورغم ما أورده الحريري في مقدمة مقاماته من أنه ألفها
بناء على اشارة ممن « اشارته حكم وطاعته غم الى ان ينشئ مقامات
يتلو فيها تلو البديع » فقد ذكر ياقوت الحموي عن الحريري انه
قال :

« ابو زيد السروجي كان شيخاً شحاذاً بليغاً ، ومكدياً
فصيحاً ، ورد علينا البصرة فوقف يوماً في مسجد بني حرام فسلم
ثم سأل الناس ؛ وكان بعض الولاة حاضراً والمسجد غاص بالفضلاء ،
فأعجبته فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحظته ، وذكر
أسر الروم ولده ، كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة
والاربعون . قال : واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء
البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل وسمعت
من لطافة عبارته في تحصيل مراده ، وظرافة اشارته في تسهيل
ايراده ، فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد من هذا السائل في
مسجده مثل ما شاهدت ، وانه سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن
مما سمعت ، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله ، ويظهر في فنون
الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرفه في تلونه
واحسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات ،

وكانت اول شيء صنعته « (١) .

فليست المقامة اذن الا أقصوصة او فكاهة صيغت بأسلوب ادبي ، وفق طريقة الادب الشائعة في عصر تأليفها ، وكان موضوعها احد اعمال هذه الطائفة او احدى حيلها ومفارقاتها في الوصول الى اللقمة واكتسبات اسباب العيش . فيتناول الكاتب هذه الحيلة او الفكاهة ويصيغها بأسلوب يحرص فيه على اظهار مهارته الادبية ومقدرته اللغوية والبديعية ، واحياناً آراءه في احد المواضيع . وكان جميع من ألف فيها عالة على الحمداني ومقلداً له وللحريري من بعده ، ولذلك كانت مقامات البديع أكثرها حيوية وطرافة لانها كانت صوراً لأفراد هذه الطائفة الذين عايشهم مؤلفها وشاهد حيلهم ونواديرهم وأفاعيلهم .

وايس علينا بعد ما تقدم الا ان نرى كيف ارتسمت حياة هذه الطائفة واعمالها في مقامات الحمداني والحريري فنورد فيما يلي واحدة او اثنتين من مقامات كل منها للتسهيل على القارئ الذي قد لا تكون كتب المقامات في متناول يده .

المقامة البغدادية

لبريع الزمان الرهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال : انتهيت الازاذ (١) وأنا ببغداد ، وليس معي عقد على نقد (٢) فخرجت انتهز محاله حتى أحلني الكرخ ، فاذا أنا بسوادي (٣) يسوق بالجهد حماره ، ويطرف بالعقد إزاره (٤) . فقلت : ظفرنا والله بصيد ، وحيك الله أبا زيد ، من اين أقبلت ، واين نزلت ، ومتى وافيت ، وهلم الى البيت . فقال السوادي : استُ بأبي زيد ، ولكني ابو عبيد . فقلت : نعم ، لعن الله الشيطان ، وأبعد النسيان ، أنسانيك طول العهد ، واتصال البعد ، فكيف خال اييك ؟ أشاب كمهدي ، ام شاب بعدي ؟ فقال قد نبت الربيع على دمنته (٥) وأرجو ان يصيره الله الى جنته . فقلت إننا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ومددت يد البدار (٦) الى الصدار أريد تمزيقه . فقبض السوادي

١ - الازاذ : من اجود انواع التمر .

٢ - اي ليس معه نقد يعقد عليه كيسه او منديله او طرف ثوبه .

٣ - السوادي : فلاح من سواد العراق .

٤ - أي عقد طرف إزاره على نقوده .

٥ - دمنته : آثار قبره .

٦ - البدار : المسارعة .

على خصري بجمعه (١) وقال : نشدتك الله لامرقتة . فقلت : هلم الى البيت نضب غداءً ، او الى السوق نشتر شواءً ، والسوق اقرب ، وطعامه اطيب . فاستفزته حمة القرم (٢) ؛ وعطفته عاطفة اللقم (٣) ؛ وطمع ، ولم يعلم انه وقع . ثم أتينا شواءً يتقاطر شواؤه عرقاً ، وتتسائل جوذاياته (٤) مرقاً . فقلت : افرز لابي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الاطباق ، وانضد عليها اوراق الرقاق (٥) ، ورش عليه شيئاً من ماء السماق ، ليأكله ابو زيد هنياً . فانحنى الشواء بساطوره على زبدة تنوره فجعلها كالكحل مسحاً . ثم جلس وجلست ، ولا يؤس ولا يؤست (٦) حتى استوفينا ، وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبي زيد من اللوزينج (٧) رطلين فهو اجرى في الحلق ، وأمضى في العروق ،

١ - جمع الكف : قبضته .

٢ - حمة القرم : شدة الشهوة الى اكل اللحم خاصة .

٣ - اللقم : الاكل السريع .

٤ - الجوذايات : جمع جوذابة ، وهي خبز يعلق عليه او فوقه طائر او لحم او غيره ، يشوى فيقطر على ذلك الخبز .

٥ - الرقاق : خبز رقيق ، وجعل آحاده اوراقاً ليدل على انتهائه في الرقة الى حد يشبه رقة الورق .

٦ - اي ان كلا منهما كان يطمع في ابتلاع ما بين يديه .

٧ - اللوزينج : نوع من الحلواء يصنع من نوع من الخبز ويسقى بدهن اللوز ويحشى بالجوز واللوز .

وايكن ليلى العمر ، يومى النشر (١) رقيق القشر ، كثيف الحشو ،
لؤلؤي الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ ليأكله ابو زيد
هنياً ، قال : فوزنه ثم قعدو قعدت ، وجرّ دو جردت ، حتى استوفيناه .
ثم قلت : يا أبا زيد ما احو جنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه
الصارّة (٢) ويفثاً (٣) هذه اللقم الحارة ، اجلس يا أبا زيد حتى
نأتيك بسقّاء ، يأتيك بشربة ماء . ثم خرجت وجلست بحيث اراه ولا
يراني أنظر ما يصنع . فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حمّاره ، فاعتلق
الشّواء بازاره ، وقال : اين ثمن ما أكلت ؟ فقال ابو زيد : أكلته
ضيفاً . فلكم لكمة ، وثني عليه بلطمة ، ثم قال الشّواء : هاك ، ومتى
دعوناك ؟ زن يا أخا القحّة عشرين (٤) فجعل السوادي يبكي ويحس
عقده بأسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد ، انا ابو عبيد ، وهو
يقول : انت ابو زيد . فأنشدت :

اعمل لرزقك كل آلة لا تقعدن بكل حالة
وانهض بكل عزيمة فالمرء يعجز لامحالة (٥)

-
- ١ - أي قد صنع بالليل ونشر من مصنعه بالنهار فيكون قد نضج وسرت
الحلاوة في جميع اجزائه .
٢ - الصارة : العطش .
٣ - يفثاً : يسكن .
٤ - اي اعط زنة عشرين درهماً .
٥ - اي ان علي المرء في زمن القدرة ان ينهض الى العظام فينالها قبل
ان يدركه العجز .

المقامة الموصلية

لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قفلنا من الموصل ، وهممنا
بالمزول ، وملكت علينا القافلة ، واخذ منا الرجل والراحلة ، جرت
بي الحشاشة (١) الى بعض قراها ومعي الاسكندري ابو الفتح .
فقلت : أين نحن من الحيلة ؟ فقال : يكفي الله . ودفعنا الى دار قد
مات صاحبها ، وقامت نوابها ، واحتفلت بقوم قد كوى الجزع
قلوبهم وشقت الفجيعة جيوبهم ، ونساء قد نشرن شعورهن ، يضربن
صدورهن ، وجددن (٢) عقودهن ، يلطمن خدودهن . فقال
الاسكندري : لنا في هذا السواد نخلة ، وفي هذا القطيع سخلة .
ودخل الدار ينظر الى الميت وقد شدت عصابته لينقل ، وسخن
ماؤه ليغسل ، وهيء تابوته ليحمل ، وخيطت أثوابه ليكفن ،
وحفرت حفرته ليدفن . فلما رآه الاسكندري اخذ حلقه ، فحس
عرقه ، فقال : يا قوم ! اتقوا الله لا تدفنوه فهو حي ، وانما عرته
بهمة (٣) ، وعلته سكتة ، وأنا أسلمه مفتوح العينين ، بعد يومين .

١ - الحشاشة : بقية النفس ، اي اسرع به ما بقي من حياته الى بعض
قرى الموصل لعله يجد فيها منجى ويصيب ما يحفظ عليه تلك البقية من الحياة .

٢ - جددن : قطعن .

٣ - عرته بهمة : طرأ عليه عارض بهمة ، أي قطعه عن الكلام وغيره
من اعمال الحياة .

فقالوا : من أين لك ذلك ؟ فقال : إن الرجل اذا مات برد إبطه ، وهذا الرجل قد لمسته فعلمت أنه حي . ففعلوا ايديهم في إبطه فقالوا : الأمر على ما ذكر ، فافعلوا كما أمر . وقام الاسكندري الى الميت فزرع ثيابه ثم شد له العمام ، وعلق عليه التأمم ، وألقه الزيت ، وأخلى له البيت ، وقال : دعوه ، ولا تردعوه (١) ، وان سمعتم له أنيناً فلا تحيروه . وخرج من عنده وقد شاع الخبر وانتشر ، بأن الميت قد نشر ، وأخذتنا المبار (٢) ، من كل دار ، وانثالت علينا الهدايا من كل جار ، حتى ورم كيسنا فضة وتبراً ، وامتلأ رحلنا أقطاً (٣) وتمراً ، وجهدنا ان ننتهز فرصة في الهرب فلم نجدها حتى حل الاجل المضروب ، واستنجز الوعد المكذوب . فقال الاسكندري ، هل سمعتم لهذا العليل ركزاً (٤) ، او رأيتم منه رمزاً ؟ فقالوا : لا . فقال : إن لم يكن صوت مذ فارقه ، فلم يجي بعد وقته ، دعوه الى غد فانكم اذا سمعتم صوته ، أمتم موته ، ثم عرفوني لا حتال في علاجه ، وإصلاح ما فسد من مزاجه . فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد . قال : لا . فلما ابتسم ثغر الصبح ، وانتشر جناح الضو ، في أفق

١ - اي اذا تحرك حركة بعد سريان الحياة فيه فلا تردعوه ولا تكفوه عنها .

٢ - المبار : الصلات والهبات .

٣ - الأقط : اللبن الحامض يملح ويحفف .

٤ - الر كز : الصوت بأنين ونحور .

الرجاء ، جاءه الرجال أفواجا ، والنساء أزواجا ، وقالوا : نحب ان
تشفي العليل ، وتدع القال والقيـل . فقال الاسكندري : قوموا
بنا اليه . ثم حذر التهام عن يده ، وحل العائم عن جسده ، وقال : أنيموه
على وجهه ، فأنيم ، ثم قل : أقيموه على رجليه ، فأقيم ، ثم قل : خلوا
عن يديه . فسقط رأسيا . وطن الاسكندري بفيه وقال : هو ميت
كيف أحياه ؟ فأخذه الخف ، وملكته الاكف ، وصار اذا رفعت
عنه يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغلوا بتجهيز الميت ، فانسللنا
هاربين حتى أتينا قرية على شفير واد ، السيل يطرفها ، والماء
يتحيفها ، وأهلها مغتمون لا يملكهم غمض الليل ، من خشية السيل .
فقال الاسكندري : يا قوم ! انا اكفيكم هذا الماء ومعرفته ، وأرد
عن هذه القرية مضرته ، فأطيعوني ، ولا تبرموا أمرا دوني .
فقالوا : وما أمرك ؟ فقال : اذبحوا في مجرى الماء بقرة صفراء ،
وأتوني بجارية عذراء ، وصلوا خلفي ركعتين يشن الله عنكم عنان
هذا الماء ، الى هذه الصحراء ، فان لم ينش الماء فدمي عليكم حلال .
قالوا : نفعل ذلك . فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية ، وقام الى
الركعتين يصليهما وقال : يا قوم احفظوا انفسكم لا يقع منكم
في القيام كبو ، او في الركوع هفو ، او في السجود سهو ، او في
العود لغو ، فمتى سهونا خرج أملنا عاطلا ، وذهب عملنا باطلا ،
واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة . وقام للركعة الاولى فانتصب
انتصاب الجزع ، حتى شكوا وجع الضلع ، وسجد ، حتى ظنوا أنه قد

هجد ، ولم يشجعوا لرفع الرؤوس ، حتى كبر للجلوس ، ثم عاد الى
السجدة الثانية وأوماً إلي فأخذنا الوادي وتركنا القوم ساجدين
لا نعلم ما صنع الدهر بهم . فأنشأ ابو الفتح يقول :

لا يبعد الله مثلي	وأين مثلي أينما
لله غفلة قوم	غنمتها ، باللهوينا
إكملت خيراً عليهم	وكلت زوراً ومينا

المقامة الاسكندرانية

للمحرري

قال الحارث بن همام : طحاني (١) مرح الشباب ، وهوى
الاكتساب ، الى ان جبت ما بين فرغانة وغانة ، أخوض الغمار ، لأجني
الثمار ، واقتحم الاخطار ، لكي ادرك الأوطار ، و كنت لقفت من أفواه
العلماء ، وثقفت من وصايا الحكماء : انه يلزم الاديب الأريب ، اذا
دخل البلد الغريب ، ان يستميل قاضيه ، ويستخلص مرضيه ، ليشتد
ظهره عند الخصام ، ويأمن في الغربة جور الحكم ، فاتخذت هذا
الادب إماماً ، وجعلته لمصاحي زماماً ، فما دخلت مدينة ، ولا ولجت
عريضة (٢) إلا وامتزجت بحاكمها امتزاج الماء بالراح ، وتقويت بعنايته
تقوي الأجساد بالارواح . فبينما انا عند حاكم الاسكندرية في عشية
عريضة (٣) وقد احضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوي الفاقات ، اذ
دخل شيخ عفريه (٤) تعتله امرأة مصبية (٥) ، فقالت : أيد الله
القاضي وأدام به التراضي ؛ اني امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر

١ - طحاني : ذهب بي .

٢ - عريضة : عرين ، مأوى الاسد .

٣ - عريضة : شديدة البرد ، او ذات ريح باردة .

٤ - عفريه : بفتح الباء ، خبيث شديد الدهاء .

٥ - مصبية : اي ذات صبيان .

أرومة ، واشرف خؤولة وعمومة ، ميسمي الصون ، وشيمتي الهون
 وخلقى نعم العون ، وبينى وبين جاراتي بون ؛ وكان ابى اذا خطبني
 بناة المجده وأرباب الجده ، سكنتهم وبكنتهم ، وعاف وصلتهم وصلتهم
 واحتج بانه عاهد الله تعالى بحلفة ان لا يصاهر غير ذي حرفة ؛ فقيض
 القدر لنصي (١) ووصي (٢) ان حضر هذا الخدعة نادي ابى
 وأقسم بين رهطه ، أنه في شرطه ، وادعى انه طالما نظم درة الى
درة ، فباعها ببدره ؛ فاغتر ابى برخرف محاله ، وزوجنيه قبل
 اختبار حاله ؛ فلما استخرجني من كناسي (٣) ورحلني عن أناسي
 ونقلني الى كسره (٤) وحصلني تحت أسره ، وجدته قعدة جثمة ،
 وألفيته ضجعة نومة ، وكنت صحبته برياش وزى ، وأثاث وري (٥) ،
 فما برح يبيمه في سوق الهضم ، ويتلف ثمنه في الخضم والقضم (٦) ،
 الى ان مزق مالي (٧) بأسره ، وأنفق مالي في عسره ، فلما أنساني

-
- ١ - النصب : التعب .
 ٢ - الوصب : المرض .
 ٣ - الكناس : المنزل ، وأطه بيت الظبي او بقر الوحش .
 ٤ - كسره : اي جانب بيته .
 ٥ - الري : حسن الحال وكثرة النعمة .
 ٦ - الخضم : الاكل بجميع الفم ، والقضم : الاكل باطراف الاسنان .
 وقيل : الخضم : أكل الرطب ، والقضم : أكل اليابس ، يريد انه يصرف ثمنه في
 انواع الاكل والملاذات .
 ٧ - اي الذي لي .

طعم الراحة ، وغادر بيتي أنقى من الراحة (١) ، قلت له : يا هذا
 انه لا نجياً بعد بوس ، ولا عطر بعد عروس ، فانهض للاكتساب
 بصناعتك ، وأجني ثمرة براعتك . فزعم ان صناعته قد رमित
 بالكساد ، لما ظهر في الارض من الفساد ؛ ولي منه سلالة ، كأنه
 خلالة (٢) ، وكلانا ما ينال معه شبعة ، ولا ترقأ له من الطوى دمة ؛
 وقد قدته اليك ، وأحضرتك لديك ، لتعجم عود دعواه ، وتحكم
 بيننا بما أراك الله .

فاقبل القاضي عليه وقال له : قد وعيت قصص عرسك ،
 فبرهن الآن عن نفسك ، والا كشفت عن لبسك (٣) وأمرت
 بحبسك .

فاطرق إطراق الافعوان ثم شمر للحرب العوان (٤) وقال :
 إسمع حديثي فانه عجب يضحك من شره وينتحب
 أنا امرؤ ليس في خصائصه عيب ولا في نخاره ريب
 سروج داري التي ولدت بها والاصل غسان حين أنتسب
 وشغلي الدرس والتبحر في العلم طلابي وحبذا الطلب
 ورأس مالي سحر الكلام الذي منه يصاغ القريض والخطب

١ - الراحة : بطن الكف ، لنقائه من الشعر .

٢ - الخلالة : عود الخلّة ، تخلل به الأسنان .

٣ - لبسك : اشكالك وتعمية امرئ .

٤ - الحرب العوان : الحرب التي قبلها حرب وهي تكون اشد من

الاولى .

أغوص في لجة البيان فأختار الآلي منها وأنتخب
واجتني اليانع الجني من القول وغيري للعود يحتطب
وآخذ اللفظ فضة فاذا ماصغته قيل انه ذهب
وكنت من قبل أم تري نسباً بالأدب المنتقى وأحتلب
ويمتطي أخصي لحرمة مراتباً ليس فوقها رتب
وظالما زفت الصلات الى ربي فلم أرض كل من يهب
فاليوم من يعلق الرجاء به اكسدي في سوقه الادب
لاعرض ابنائه يسان ولا يرقب فيهم إلثولاً نسب (١)
كانهم في عراصهم جيف يبعد من تننّها ويحتنب
فخار لي لما منيت به من الليالي وصرفها عجب
وضاق ذرعي لضيق ذات يدي وساورتني الهموم والكرب
وقادني دهري المليم الى سلوك ما يستشينه الحسب
فبعت حتى لم يبق لي لبد ولا بتات اليه أنقلب (٢)
وادنت حتى اثقلت سالفتي بحمل دين من دونه العطب (٣)
ثم طويت الحشا على سغب خمساً فلما امضني السغب
لم أر الا جهازها عرضاً أجول في بيعه واضطرب
فجئت فيه والنفس كارهة والعين عبرى والقلب مكتئب

١. الإل : العهد والقرابة والجوار .

٢. البتات : الزاد ومتاع البيت .

٣. السالنة : صفحة العنق ، وقيل مقدمة .

وما تجاوزت اذعشت به
فان يكن غاظها توهمها
او اني اذ عزمت خطبتها
فو الذي سارت الرفاق الى
ما المكر بالمحصنات من خلقي
ولا يدي مذنشات نيط بها
بل فكرتي تنظم القلائد لا
كفي وشعري المنظوم لا السخب (٢)
فهذه الحرفة المشار الى
ما كنت أحوي بها واجتلب
فاذن لشرحي كما اذنت لها
ولا تراقب واحكم بما يجب (٣)
قال : فلما احكم ما شاده ، واكمل انشاده ، عطف القاضي الى
الفتاة ، بعد ان شعف (٤) بالابيات وقال : قد ثبت عند جميع الحكام
وولاية الاحكام ، انقراض جيل الكرام ، وميل الايام الى اللئام ،
واني لاخال بملك صدوقاً في الكلام ، برياً من الملام ، وهاهو قد
اعترف لك بالقرض ، وصرح عن المحض ، وبين مصداق النظم ،
وتبين انه معروق العظم (٥) ، وإعانات المعذر ملائمة ، وحبس

- ١ - اي ان يكن غاظها توهمها انني صائغ عندما قلت انني ناظم در .
- ٢ - السخب : جمع سخاب ؛ وهو القلادة من قرنفل وغيره .
- ٣ - لا تراقب : اي لا تنظر الى واحد منا ولا تعدل عن الحق .
- ٤ - شعف : بالعين المهملة ، من شعف الحب فؤاده اي علاه وشمله .
- ٥ - معروق العظم : كناية عن الهزال ، يقال : عظم معروق ، اذا اخذ ما عاينه من اللحم .

المعسر مألمة ، و كتمان الفقر زهادة ، وانتظار الفرج بالصبر عبادة ،
 فارجمي الى خدرك ، واعذري أبا عذرك (١) ، ونهني (٢) عن
 غربك ، وسلمي لقضاء ربك . ثم انه فرض لهما في الصدقات حصصا ،
 وناولهما من دراهمها قبصة (٣) ، وقال لهما : تعللا به هذه العلالة ،
 وتنديا بهذه البلالة واصبرا على كيد الزمان وكده ، فعسى الله ان
 يأتي بالفتح او امر من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من
 الاسار ، وهزة الموسر بعد الاعسار ؛ قال الراوي : و كنت عرفت
 انه ابو زيد ساعة بزغت شمسها ، ونزغت (٤) عرسه ، وكدت افصح
 عن افتنانه ، وإثمار افنانه ، ثم اشفقت من عثور القاضي على بهتانه ،
 وتزويق لسانه ، فلا يرى عند عرفانه ، ان يرشحه لاحسانه ،
 فأحجمت عن القول احجام المرتاب ، وطويت ذكره كطي
 السجل (٥) للكتاب ، الا اني قلت بعد ما فصل (٦) ، ووصل الى ما وصل :
 لو ان من ينطلق في اثره ، لاتانا بفص خبره (٧) وبما ينشر من

-
- ١ - ابو عذر المرأة : زوجها الاول الذي افترض بكارتها وازال عذرتها
 - ٢ - اي كفي وازجري نفسك عن الحدة .
 - ٣ - القبصة : ما يتناوله الانسان باطراف اصابعه .
 - ٤ - النزغ : الذكر بالقبيح والافساد بين الناس ، وهنا خاصيته عرسه .
 - ٥ - السجل : اسم ملك ، وقيل كاتب النبي (ص) ، وقيل هو الصحيفة فيها
 الكتابة ، اي كما تطوي الصحيفة الكتابة .
 - ٦ - فصل : ذهب .
 - ٧ - فص خبره : حقيقة حاله .

حبره ، فأتبعه القاضي احد أمنائه ، وأمره بالتجسس عن أنبائه ،
 فلما لبث ان رجـع متدهدهاً (١) وقهقر مقهقهاً ، فقال له القاضي :
 مهيم (٢) يا أبا مريم ؟ فقال : لقد عاينت عجباً ، وسمعت ما أنشأ لي طرباً .
 فقال له : ماذا رأيت ، وما الذي وعيت ؟ قال : لم يزل الشيخ منذ
 خرج يصفق بيديه ، ويخالف بين رجله (٣) ويغرد بملء شـدقيه
 ويقول :

كدت أصلى بيلية من وقاح شمريه (٤)
 وأزور السجن لولا حاكم الاسكندرية

فضحك القاضي حتى هوت دنيته (٥) وذوت سكينته ، فلما
 فاء الى الوقار ، وعقب الاستغراب بالاستغفار قال : اللهم بحرمـة
 عبادك المقربين ، حرّم حبسي على المتأدين ، ثم قال لذلك الامين :
 عليّ به . فانطلق مجدداً في طلبه ثم عاد بعد لأيه ، مخبراً بنأيه . فقال
 له القاضي : اما انه لو حضر ، لكفي الحذر ، ثم لا وليته ما هو به
 أولى ، ولا ريته ان الآخرة خير له من الاولى . قال الحارث بن
 همام : فلما رأيت صغو (٦) القاضي اليه ، وفوت ثمرة التنبيه عليه ،

١ - التدهده : الاسراع .

٢ - مهيم : اي ما الخبر ، وهي كلمة لاهل اليمن .

٣ - يخالف بين رجله : يرقص .

٤ - الشمري : الماضي في الامور ، الحاد فيما يحاول .

٥ - الدنية : قلنسوة طويلة يلبسها القضاة ، كأنها منسوبة الى الدن .

٦ - الصغو : الميل .

غشيتني ندامة الفرزدق حين أبان النوار (١) والكسعي (٢) لما
استبان النهار .

-
- ١ - النوار : اسم زوجة الفرزدق وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك .
٢ - الكسعي : هو عامر بن الحارث نسبة الى كسع ، وهو حي من بني
ثعلبة ، كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلاً فنفذت في الرمية
ووقع السهم في حجر ففقد منه الشرر ، فظن ان السهم اخطأ الرمية ورمى ثانياً
وثالثاً الى آخر الاسهم وكانت خمساً وهو يظن خطأه ، فعمد الى قوسه فكسرها ثم
بات . فلما اصبح تبين ان اسهمه كلها اصابته فندم ندماً شديداً ، فضربت العرب بالمثل
به في الندامة .

الفهرس

صفحة

٣	مقدمة المؤلف
٤	المقامة في التاريخ
٩	هل المقامة قصة ؟
١١	المقامة من ابتكار الهمداني
١٩	تطور المجتمع الاسلامي حتى القرن الرابع الهجري
٤٠	الوضع الاجتماعي والطبقي في = = =
٦٨	أهل الكدية أبطال المقامات
١٠٢	المقامة البغدادية - للهمداني
١٠٥	= الموصلية - =
١٠٩	= الاسكندرانية - للجريري

الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
المغلوب	الملوب	٤	٢١
، من عبدة	ومن عبدة	١٣	٢٥
وممن	ومما	١	٢٨
نة	سنة ؟	١٦	٣٥
الذي	الذ	١٩	٥٤
والاها	والدها	٧	٦٢
قد	لقد	٩	٧٧
ذلك	ذاك	١٤	٧٧
كعي	كي	٣	٧٨
صوره	صوه	١٩	٩٤
التدريب	اليدرب	٦	٩٦
أورده	أوروده	٧	٩٩
اكتساب	اكتسات	٥	١٠١

منشورات

دار ابن الوليد

- | | | |
|---|--------------|---------------------|
| ★ معركة التروستات | هنري بيري | نجاح ساتي السباعي |
| ★ اصول الحرية | روجيه غارودي | بدر الدين السباعي |
| ★ دور الفرد في التاريخ | بليخانوف | احسان سر كيس |
| ★ الصين في طريق الاشتراكية | { | نجاح ساعاتي السباعي |
| | | بدر الدين السباعي |
| ★ اغاثة الامة | المقرزي | |
| ★ مخاطر جمع الاسلحة حرب | هنري كلود | بدر الدين السباعي |
| ★ استراتيجية الحرب الثورية | ماوتسي تونغ | دار ابن الوليد |
| ★ الفن والحياة الاجتماعية | بليخانوف | احسان حصني |
| ★ حق الامم في تقرير المصير | لينين | دار ابن الوايد |
| ★ الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية | انجلز | عبد النافع طلهمات |
| ★ الحرب والشعوب | | بدر الدين السباعي |
| ★ اهل الكدية ابطال المقامات في الادب العربي | | عبد النافع طلهمات |

قريباً

- ★ معطيات تكيمية لمؤلف لينين عن الاستعمار
- ★ الإنسان والطبيعة . . .
- ★ أمتان برجوازية واشتراكية . . .
- ★ قصص
- ★ موجز الاقتصاد السياسي
- ★ أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي
- ★ لينين - فارغا - منداس

١٥٠



الثلث ١٢٥ ق.س. او ما يعادلها

مطابع انجى الحديث